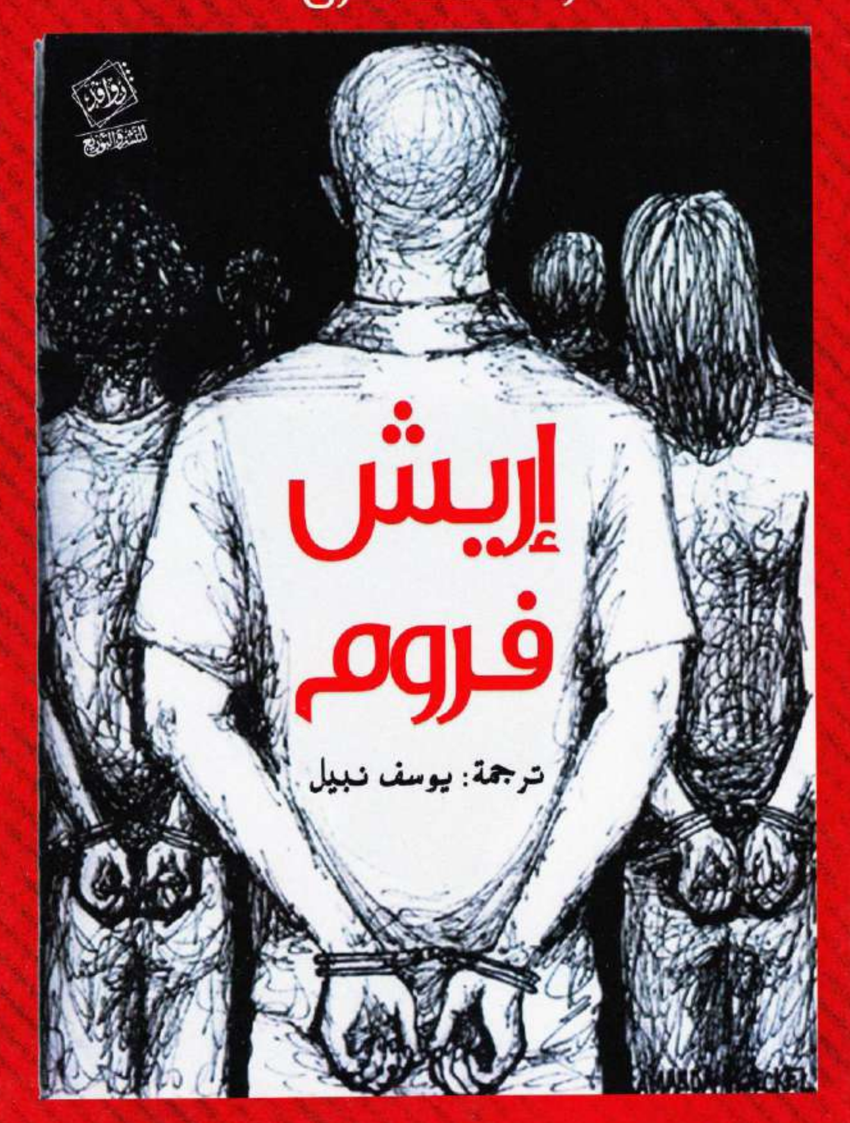
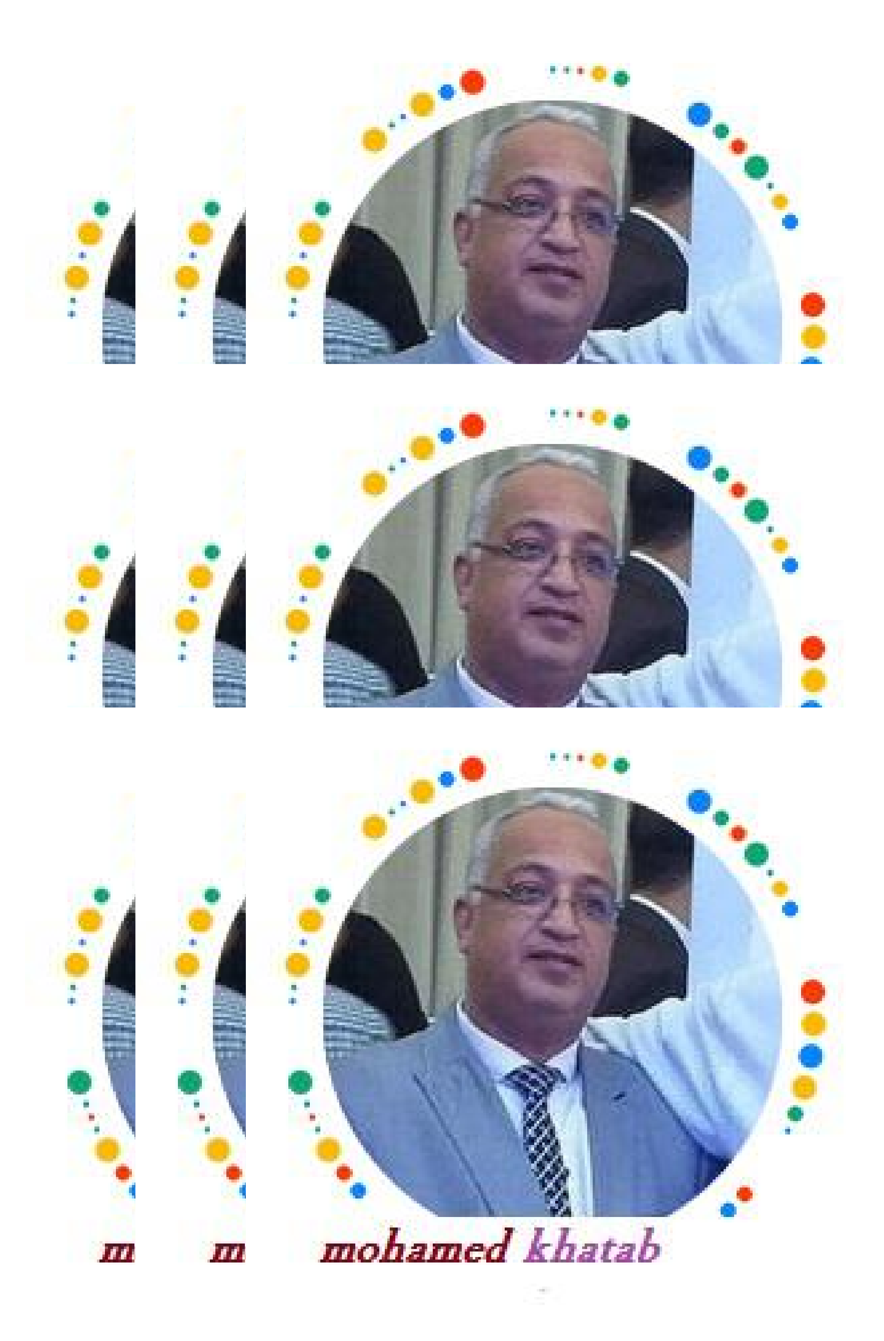
عن العصيان

ومقالات أخرى




mohamed khatab

إريش فروم

عن العصيان

ومقالات أخرى

ترجمة: يوسف نبيل

عن العصيان ومقالات أخرى/ إريش فروم – ترجمة يوسف نبيل
روافد للنشر والتوزيع. 2016 ط أولى، القاهرة
204 ص ؛ 21 سم
رقم الإيداع: 13331 /2016
الترقيم الدولي I.S.B.N.: 978-977- 751 -236 -7



روافد للنشر والتوزيع
تليفون 01222235071 2+
rwafead@gmail.com
www.rwafead.com

Translated from the English: ON DISOBEDIENCE AND OTHER ESSAYS
First published by Harper Collins Publishers, New York, 1981

مقدمة

منذ عدة أعوام عثرت بالصدفة على كتاب يدعى: "بوذية الزن والتحليل النفسي". كنت مهتمًا وقتها بالكتابات النفسية والصوفية على السواء؛ فتلقفت الكتاب فورًا دون أن أعرف شيئًا عن مؤلفيه: (إريش فروم – د.ت سوزوكي). من وقتها ظللت أفتش عن كتابات فروم حتى قرأت كل ما تُرجم له إلى العربية تقريبًا، وبعدها بدأت بحثي عما لم يُترجم له بعد، وكانت هذه المقالات سببًا لانخراطي في عملية الترجمة. لقد عملت مترجمًا في البداية من أجل أن أترجم هذا الكتاب تحديدًا، وهذا الكاتب بشكل خاص، ثم انخرطت في ترجمات أخرى.

ما سبب ذلك؟ سألت نفسي عن سبب انجذابي الشديد لفروم، وكلما أمضي في قراءته وإعادة قراءته مرة أخرى أصل إلى إجابة أكثر وضوحًا.

إريش فروم (1900- 1980)، عالم نفس وفيلسوف إنساني ألماني أمريكي. ولد في مدينة فرانكفورت وهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في 1934. التحق بجامعة فرانكفورت وهايدلبيرغ حيث درس فيها العلوم الاجتماعية والنفسية والفلسفية.

شكَّل فروم ما يسمى بثورة التحليل النفسي الإنساني. سطعت شهرته ككاتب بعد إصدار كتابه الشهير: "الخوف من

الحرية" والذي حاول فيه تفسير ظاهرة الأنظمة الشمولية كالنازية والستالينية. وكيف يمكن لشعب اشتهر بالفلسفة والثقافة كالشعب الألماني أن ينخرط في مثل هذا النظام.

مع مرور الوقت سارت مدرسة التحليل النفسي الفرويدية في طريق مسدود، حيث تحولت إلى ما يشبه طائفة دينية ذات معتقدات دوجمائية لا يمكن الخروج عنها. وقد بدأ فروم في تشكيل قناعاته فرويديًا خالصًا، ثم تطور الأمر بعد ذلك. أكثر ما ميّزه اطلاعه على النظرية الماركسية وعلم الاجتماع والأديان والأساطير. لقد أدرك جيدًا أن التحليل النفسي في حاجة إلى جهود فلاسفة آخرين قاموا بنشر أعمال فلسفية عن المجتمع. انصبت جهود فرويد كلها على الفرد، ومع أنه أخرج إلى النور وجهات نظر شكلت صدمة للمجتمع، إلا أن خروجه عن الأعراف والتقاليد كان في مساحة معينة لم يستطع تجاوزها. لم يستطع فرويد أن يمتد بالنقد إلى جذور النظام الاجتماعي نفسه، فشكلت أراؤه عن الحضارة حتمية غير مبررة بين مجتمع قد وصل إلى أقصى درجات نضجه، وفي نفس الوقت لا يمكن أن يشبع حاجات الإنسان الغريزية. أدرك فروم أن المشكلة الكبرى في بنية هذا المجتمع ذاته، وأن الأب والأم اللذان يشكلان شخصية الطفل في الأعوام المبكرة طبقًا لفرويد، ما هما إلا نتاج لبنية مجتمعية معينة يجب دراستها ومحاولة تغييرها. منذ هذه اللحظة حاول فروم المزج بين

الفرويدية والماركسية، وقد أدرك مدى عمق كل منهما، وقصورهما في نفس الوقت على تجاوز بعض المشاكل.

يشكل فروم أقصى امتداد ممكن للنزعة الإنسانية بالغرب. قامت النزعة الإنسانية منذ عصر النهضة – كما يطلق عليه الأوروبيون – على مبادئ أساسية؛ أهمها إبعاد الرب عن المركز ووضع الإنسان بدلا منه مركزًا للاهتمام. كان هذا بمثابة رد فعل على عصور الفلسفة المدرسية التي وضعت الرب في المركز وأهملت الإنسان كاملا. حاولت إذن النزعة الإنسانية أن تقيم أسسًا ومعايير إنسانية يمكن الاستناد إليها لفهم العالم وإقامة فلسفة أخلاقية معيارية. في نفس الوقت بدأ الاتجاه المادي يتطور بعيدًا عن النزعة الإنسانية، حتى وصل إلى فلسفات الحداثة وما بعد الحداثة في التفكيك والبنيوية وغيرها. لقد أنكرت الفلسفة المادية في غالبية توجهاتها أية محاولة لإقامة معايير أخلاقية، وأنكرت وجود طبيعة إنسانية. حدث هذا على التوالي في الفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع، بينما حاولت النزعة الإنسانية أن تجد سبيلا للتوفيق بين المادية والإنسانية.

استندت محاولة فروم المعيارية في وضع الطبيعة الإنسانية كمطلق يمكن الاستناد إليه في المعرفة والأخلاق. لقد اعتقد في إمكانية تمييز ملامح معينة في الطبيعة الإنسانية موجودة في الإنسان في أي زمان ومكان، وأية تغييرات فيها بمثابة انحرافات يحاول الإنسان تجاوزها كلما أمكن. أكد

فروم على أن بنية المجتمع هي ما يجب أن يُطلق عليها صحيحة أو مريضة، من حيث أن طبيعة كل مجتمع تشجع نموذجًا اجتماعيًا معينًا من الأفراد الذين يقومون بتلبية حاجاته، وقد تكون هذه البنية موافقة للطبيعة الإنسانية، أو معارضة لها مما يسبب مشاكل للفرد الذي يحاول التمرد عيها وتغييرها، أو الخضوع لها مع انحراف حاد في طبيعته.

لم أقرأ من قبل لأحد يشير إلى أوجه التشابه الفريدة بين فروم وتشومسكي. شكّل كل منهما مرحلة متطورة في النزعة الإنسانية، ورفضا الفلسفات المعاصرة اللا معيارية، حيث أنكرت هذه الاتجاهات وجود طبيعة بشرية معيارية. استند تشومسكي في مشروعه إلى علم اللغة الذي حاول به إثبات وجود طبيعة بشرية معينة تتفاعل معها البيئة بأشكال لا حصر لها. في حواره الشهير مع فوكو أوضح تشومسكي أن المثقف يحمل عبء مهمتين أساسيتين: الأولى محاربة وتفكيك الأنظمة القمعية الموجودة، والأخرى وضع تصور للمجتمع المثالي الذي لا بد من السعي نحوه، وحينها اتفق معه فوكو في الأولى ورفض الثانية حيث رفض وجود معيار عن العدالة يمكن السعي خلفه، وقال إن كل ما نطلق عليه عدالة هو مصلحة طبقية تسعى إليها مجموعة ما في ظرف تاريخي معين. رفض تشومسكي هذا الرأي ببداهة وضوح المفاهيم، فقال إن الإنسان يمكنه ببداهة أن يُفرّق بين العدل والظلم. توازي البداهة عند تشومسكي الطبيعة البشرية المعيارية عند فروم. حاول كلاهما

أن يضع معايير وسط نظام مادي، فهل نجحا في ذلك؟ هذا سؤال مطروح على القارئ. شدّد كل من فروم وتشومسكي على تحليل بنية المجتمعات الرأسمالية، وإيضاح أنه لا يمكن القبول بهذا النظام في أي مجتمع يحترم الإنسان.

تتميز هذه المقالات بعدة مميزات أهمها أنها تلخص مشروع فروم بالكامل بتكثيف شديد، فبعض المقالات تلخص كتبًا ضخمة لفروم في سطور قليلة، كما أنها تعبر عن آرائه بصراحة ووضوح شديدين. تتميز أيضًا المقالات بسهولة اللغة، وهي سمة تميز غالبية كتابات فروم بشكل عام، كما يشير فروم في مقالاته إلى بعض المفاهيم الجديدة ربما لم تكن واضحة في كتبه الأخرى.

ربما أهم ما يجب أن يعيد فيه المثقف العربي التفكير هو قضية المعيارية. لقد أصبحت موضة شائعة أن نتحدث عن النسبية "المطلقة" – إن جاز التعبير - كأنها حقيقة لا يمكن التشكيك فيها، مع تعارضها الحاد مع البديهة. كيف يمكن لحضارة أن تنطلق من سيولة كاملة في المعايير؟ لم يحكم المثقف العربي بنسبية كل الأمور إلا على وجهة نظره عن "نسبية كل الأمور"؟ أيواجه الإنسان صعوبة بالغة ليحكم على أنظمة استبدادية مثلا أنها ترتكب مظالم عديدة في حق شعوبها؟ إن فكرة النسبية وانعدام المعيارية وعدم وجود أسس أخلاقية قضايا شديدة الخطورة لا يمكن الحكم فيها بهذه السهولة انسياقًا خلف بعض المفاهيم الفلسفية التي خضعت

لنقد كبير جدًّا في الغرب، ولم تخضع لهذا النقد في الشرق. إن الدوجما والإيمان بالنسبية الكاملة ينفيان أي إمكانية لقيام حوار، أو أي احتمالية للوصول إلى نتائج. ربما يوحي انتشار بعض الأفكار بشكل غير طبيعي في وطننا العربي بأسباب أخرى عميقة، سواء كانت نتاج لعوامل داخلية في بنية الفكر العربي، أو بمؤثرات خارجية؛ ففي ظني أن فكرة انعدام المعيارية هي السبب الرئيسي لإفساد طبقات المثقفين. يبقى إذن أن نطلع على وجهات نظر بديلة دون أن نكون ملزمين أيضًا بتبنيه كاملا، بل نُعمل فيها العقل النقدي. من هنا تأتي أهمية فروم الذي يوضح لنا الحل الذي تطرحه النزعة الإنسانية في أقصى درجاتها تطورًا في ظني.

نحن في حاجة ماسة لفهم بنية الفلسفات المادية بشقيها: المادي البحت، والمادي الإنساني، فهمًا جيدًا حتى نتمكن من تكوين آراء أصيلة. لسنا بحاجة للخضوع لتأثير أوحد، أو الانغماس في موضة فلسفية ما باتباع مفاهيم ومصطلحات غريبة عن عالمنا المعرفي. نحن في حاجة لتحليل المسائل الأساسية التي تتعلق بالفرد والمجتمع، ومحاولة فهم أسباب انسياق الجماعات خلف خطابات الاستبداد حتى وإن حمل ذلك أضرارًا شتى على مصالحهم المباشرة. كل هذه الأسئلة يقدم لها فروم إجابات تستحق القراءة والتمعن مليًّا، فهو من أهم المفكرين المعاصرين الذين نحتاج فهم مشروعهم المعرفي والسياسي والاجتماعي بشكل دقيق.

العصيان من منظور نفسي وأخلاقي

لقرون عديدة يصر الملوك والسادة الإقطاعيين وأرباب الصناعة والآباء والأمهات على أن الإذعان فضيلة والعصيان رذيلة. من أجل أن نقدم وجهة نظر أخرى دعنا نضع عبارة أخرى ضد هذا الموقف ونقول: "لقد بدأ التاريخ الإنساني بفعل عصيان، وليس من المستبعد أن ينتهي بفعل إذعان". طبقًا للأساطير العبرية واليونانية، بدأ التاريخ الإنساني بفعل عصيان. كانا آدم وحواء جزءًا من الطبيعة بمقتضى عيشهما في جنة عدن. لقد كانا في تناغم معها، ولم يتجاوزاها. كانا في الطبيعة كالجنين في رحم الأم. لقد كانا بشرًا وفي نفس الوقت لم يكونا بشرًا. تغير كل شيء عندما عصيا أمرًا. بتحطيم تلك القيود مع الأرض والأم: بقطع ذلك الحبل السري انبثق الإنسان من مرحلة ما قبل البشرية المتناغمة وأصبح قادرًا على اتخاذ الخطوة الأولى في طريق استقلاليته وحريته. إن فعل العصيان الذى قام به آدم وحواء جعلهما أحرارًا وفتح أعينهما. لقد نظرا إلى بعضهما كغرباء وللعالم من حولهما كغريب معادٍ. مزق عصيانهما ارتباطهما مع الطبيعة وجعلهما متفردين، وبعيدًا عن فكرة إفساد الإنسان كان مفهوم الخطية الأصلية وسيلة تحريره. لقد شكّل بداية التاريخ. كان على الإنسان أن

يحيا خارج جنة عدن ليتعلم أن يعتمد على قواه الشخصية ليصبح بشرًا حقيقيًا.

لقد أكد الأنبياء في مفهومهم المسياني[1] على فكرة أن الإنسان لديه حق العصيان، وأنه لم يُفسد بخطيته، بل تحرر من قيود التناغم ما قبل الإنساني. بالنسبة للأنبياء فإن التاريخ هو المكان الذى يصبح فيه الإنسان إنسانًا، وعبر تجليات التاريخ يُطوِّر الإنسان قواه العقلية وقوى الحب حتى يخلق تناغمه الجديد بينه وبين أخيه الإنسان وبينه وبين الطبيعة. هذا التناغم الجديد يُوصف بـ"نهاية الأيام" وهي الفترة التاريخية حيث يحل السلام بين الإنسان وأخيه وبين الإنسان والطبيعة. إنها جنة جديدة يخلقها الإنسان نفسه، وهو وحده القادر على صنعها لأنه أُجبر على ترك الجنة القديمة نتيجة لعصيانه.

كما هو الأمر بأسطورة آدم وحواء العبرية، فإننا نجد أيضًا في الأساطير اليونانية كل حضارة الإنسان قائمة على فعل العصيان. يضع بروميثيوس بسرقته للنار من الآلهة أساسًا لارتقاء الإنسان. لم يكن ليبدأ أي تاريخ إنساني لولا جريمة بروميثيوس. إنه يُعاقب كآدم وحواء لعصيانه، لكنه لا يتوب أو يسأل الصفح؛ بل على العكس يصيح مفتخرًا: "أفضل أن أقيَّد إلى هذه الصخرة على أن أصبح عبدًا للآلهة".

---

1 الكلمة مشتقة من كلمة "المسيا"، وهي لفظة تعبر عن المخلِّص الذي تنبأ به أنبياء اليهود الذي سيخلص إسرائيل من آلامه، ثم قال المسيحيون إن المسيا هو السيد المسيح الذي تحققت فيه النبؤات. (المترجم)

ظل الإنسان في تطوره مع تفعيل العصيان. لم يكن فقط تطوره الروحي ممكنًا بسبب وجود أناس جرءوا على أن يقولوا لا للقوى التي تتحرك باسم الضمير والإيمان، ولكن أيضًا تطوره العقلي اعتمد بشكل أساسي على حقيقة كونه عاص؛ عاص ضد السلطات التي حاولت تكميم الأفكار الجديدة؛ عاص ضد سلطة الآراء الراسخة لمدة طويلة والتي حوَّلت التغيير في النهاية لشيء لا معنى له. إن كانت القدرة على العصيان شكَّلت بداية التاريخ الإنساني، فإن الإذعان من الممكن جدًّا كما قلت سابقًا أن يكون السبب في نهاية التاريخ الإنساني. إني لا أتكلم بشكل شعري أو رمزي. هناك بالفعل احتمالية وإمكانية لأن يُدمر الجنس البشري الحضارة والحياة نفسها في خلال الخمسة أو العشرة أعوام القادمة. لا توجد معقولية في هذا. الحقيقة أنه بينما نحيا تقنيًّا في العصر الذري، فإن غالبية البشر بما فيهم غالبية من في السلطة ما زالوا يحيون عاطفيًّا في العصر الحجري. بينما تشكِّل الرياضيات والفلك والعلوم الطبيعية القرن العشرين، فإن معظم أفكارنا حول السياسة والدولة، والمجتمع متخلفة كثيرًا عن عصر العلم. إن انتحرت البشرية، فسوف يكون هذا بسبب طاعة البشر لمن يأمرهم بالضغط على أزرار التدمير. سيكون هذا بسبب طاعتهم لأحاسيس الخوف القديمة، والكراهية والطمع. سيكون هذا بسبب طاعتهم لأكلاشيهات الدولة والسلطة العليا والفخر الوطني. يتحدث القادة

السوفييت كثيرًا عن الثورات، ونحن في العالم الحر نتحدث كثيرًا عن الحرية. ولكن كلانا يحذر من العصيان. يحدث هذا في الاتحاد السوفيتي بشكل واضح وبالقوة، وفي العالم الحر بشكل ضمني وبطرق إقناع أكثر مكرًا.

لكني لا أقصد القول بأن كل أشكال العصيان هي فضيلة وبأن كل أشكال الطاعة هي رذيلة. نظرة كهذه سوف تتجاهل العلاقة الديالكتيكية بين العصيان والطاعة. إن المبادئ التي تُطاع وتلك التي يتم عصيانها لا تلتقي، ولكن فعل الطاعة لمبدأ ما يستلزم عصيانًا لمبدأ آخر والعكس صحيح. تشكل أنتيجونا المثال الكلاسيكي لهذا الانشطار. بطاعتها للقوانين اللا إنسانية للدولة، فإنها بالضرورة ستعصى قوانين الإنسانية. وبطاعتها للأخيرة فإنها ستعصى الأولى. كل شهداء المعتقدات الدينية والحرية والعلم كان عليهم أن يعصوا هؤلاء الذين أرادوا تكميمهم من أجل طاعة ضمائرهم الخاصة وقوانين الإنسانية والمنطق. إن كان على الإنسان أن يطيع فقط ولا يعصي فهو عبد، وإن كان عليه أن يعصي فقط ولا يطيع فهو متمرد (وليس ثوريًّا). إنه يسلك كنتاج للغضب والإحباط والاستياء، ولا يندرج سلوكه تحت راية الاقتناع الراسخ أو المبادئ.

وعلى كل حال، فمن أجل منع خلط المفاهيم يجب وضع بعض الشروط المهمة: الطاعة لشخص أو مؤسسة أو لسلطة (الطاعة المتغايرة الولاء والانضباط) هي خضوع وإذعان. إنها تقتضي ضمنًا التنازلِ عن استقلالي من أجل إرادة أجنبية بدلا

من إرادتي. أما الطاعة للقناعات المنطقية والخاصة (الطاعة الاستقلالية) فإنها ليست فعل خضوع بل فعل إثبات. إن كانت قناعاتي وأحكامي فعلا تنتمى لي فهي جزء مني. إن اتبعتها أكثر من اتباعي للآخرين فأنا أؤمن بنفسي، ومن ثم فإن كلمة يطيع يمكن أن تُصنَّف بشكل مجازي أو استعاري بمعنى مختلف كلية عن معناها في الطاعة المتغايرة الولاء والانضباط.

لكن هذا التميز ما زال بحاجة لشرطين آخرين. الأول يتعلق بمفهوم الضمير (الوجدان)، والآخر يتعلق بمفهوم السلطة.

كلمة ضمير أو وجدان غالبًا ما تُستخدم للتعبير عن ظاهرتين بعيدتين عن بعضهما إلى حد كبير. الأولى (الضمير السلطوي) والذي يتعلق بالصوت الكامن داخلنا للسلطة التي نسعى لإرضائها ونخاف من عصيانها. هذا الضمير السلطوي هو ما يختبره غالبية البشر عندما يطيعون أصوات ضمائرهم. إنه أيضًا الضمير الذي تكلم عنه فرويد وأسماه بالأنا الأعلى. يمثل الأنا الأعلى الأوامر الكامنة بداخلنا والمحرمات الأبوية والتي يقبلها الابن بدافع من خوفه. أما المفهوم الأخر للضمير فيبتعد عن المفهوم السابق وهو الضمير الإنساني. إنه الصوت الحاضر في كل إنسان مستقلا عن العقوبات والمكافآت الخارجية. يقوم الضمير الانساني على حقيقة أنه لدينا نحن البشر معرفة فطرية بما هو إنساني وبما هو غير إنساني، معرفة ما يفضي إلى الحياة وما يدمرها. هذا الضمير يخدم احتياجاتنا الإنسانية. إنه الصوت الذى ينادينا بالعودة إلى أنفسنا وإلى الانسانية.

الضمير السلطوي (الأنا الأعلى) يعبر عن طاعة لسلطة خارجية حتى وإن كانت كامنة بداخلنا متخذة قناع الذاتية. بشكل واعٍ فإني أؤمن أني أتبع ضميري الخاص، ولكن في الواقع فإني تلقفت مبادئ القوى الخارجية، وهذا يحدث فقط بسبب الوهم القائل بأن الضمير والأنا الأعلى متطابقان. إن السلطة المُقنَّعة أكثر فاعلية بشكل كبير من السلطة التي تعبر بوضوح عن انفصالها عني. الإذعان للضمير السلطوي مثل كافة أشكال الطاعة للمعتقدات والأفكار والقوى الخارجية يؤدي إلى إضعاف الضمير الإنساني الذي يمنح الإنسان القدرة على الوجود ومحاسبة النفس.

يعني ذلك أن الطاعة لشخص آخر تحتاج أيضًا للتمييز بين السلطة العقلانية واللاعقلانية. يمكن أن نجد مثالا للسلطة العقلانية في العلاقة بين التلميذ والمعلم، ومثالا للسلطة اللاعقلانية في العلاقة بين السيد والعبد. كلا العلاقتين قائمتان على حقيقة مفادها أن سلطة الشخص بشكل عام مقبولة، ومع ذلك فكل منهما لها طبيعة مختلفة ديناميكيًّا. إن مصالح المعلم والتلميذ في الحالة المثالية هما في نفس الاتجاه. يصل المعلم إلى رضاه إن نجح في إثراء التلميذ، وإن فشل في ذلك يكون الفشل من نصيبه ونصيب التلميذ كليهما. على الجانب الآخر فإن السيد يريد استغلال العبد بأقصى قدر ممكن. وكلما يستفيد منه يكون أكثر شعورًا بالرضا. في نفس الوقت يحاول العبد أن يدافع عن مطالبه التي تمنحه الحد الأدنى من

السعادة. إن مصالح السيد والعبد متعارضة على الدوام فما هو صالح ومفيد لأحدهما يكون ضار ومؤذٍ للآخر. سيادة طرف على الآخر في الحالتين تختلفان وظيفيًا. في العلاقة الأولى تعمل السيادة على تعزيز الطرف الآخر وتعضيده، أما في الثانية فتعمل على استغلاله حتى أقصى قدر ممكن.

هناك تمييز آخر بشكل متوازٍ: السلطة العقلانية معقولة بسبب أنها تتصرف بدعوى العقل إن كانت من معلم أو من ربان سفينة يعطي أوامره في حالة طارئة، ودعوى العقل هنا أستطيع قبولها دون أي إذعان. أما السلطة اللاعقلانية فتضطر لاستخدام القوة أو الخداع لأنه لا يوجد إنسان سيدع نفسه تخضع للاستغلال إن كان في مقدوره منع هذا.

لماذا نجد الإنسان يميل إلى الإذعان بسهولة ونادرًا ما يعصي؟ طالما أخضع لقوى الدولة والكنيسة والرأي العام فأنا أشعر بالأمان والحماية. بشكل واقعي لا تشكل الجهة التي أخضع لها فارقًا كبيرًا. إنها دائمًا مؤسسة أو بشر يستخدمون القوة بشكل ما أو بآخر، وبشكل أساسي يدَّعون معرفة كل شيء والقدرة الكلية. إن إذعاني يجعلني جزءًا من تلك القوة التي أعبدها، ومن ثم أشعر بالقوة. لا يمكن أن يكون هناك أي خطأ غير المقرر لي سلفًا: لا أستطيع أن أبقى وحدي لأني مُراقب باستمرار؛ لا أستطيع ارتكاب خطيئة لأن تلك القوة لن تدعني أرتكبها، وحتى إن ارتكبت خطيئة فإن العقوبة هي الطريقة الوحيدة التي تعيدني إلى أحضان تلك القوة العظمى.

من أجل أن يعصي الإنسان عليه أن يتحلى بالشجاعة لأن يكون وحيدًا وأن يرتكب الإثم. لكن الشجاعة وحدها ليست كافية. إن قدر الشجاعة هنا يعتمد على حالة تطور الإنسان. فقط إن استطاع الإنسان الخروج من كنف الأم وأوامر الأب؛ فقط إن استطاع أن يُخرج نفسه كشخص مستقل متفرد سوف يستطيع اكتساب القدرة على التفكير والشعور بذاته ويمتلك الشجاعة الكافية لقول لا للقوى المحيطة به وأن يعصاها.

يصبح الإنسان حرًّا من خلال أفعال عصيانه، وبتعلم قول لا للقوى المحيطة. ليس العصيان الشرط الوحيد للحرية ولكن الحرية هي شرط للعصيان أيضًا. إن خفتُ من الحرية لن أجرؤ على قول لا، ولن أملك الشجاعة لأن أكون عاصيا. بشكل واقعي فالحرية والعصيان لا يفترقان، ومن ثم فإن أي نظام اجتماعي أو سياسي أو ديني يدَّعي الحرية ويعمل على إخماد العصيان لا يمكنه قول الحقيقة.

ثمة سبب آخر يجعل من الصعب على الإنسان أن يعصي وأن يقول لا للقوى المحيطة به. في معظم التاريخ البشري عُرِف الإذعان على أنه فضيلة، والعصيان كخطيئة. والسبب هنا بسيط: على مدار الجزء الأكبر من التاريخ فإن الأقلية هي التي حكمت الغالبية. هذه القاعدة نشأت بشكل ضروري من الحقيقة التي بمفادها توجد أشياء جيدة كافية فقط لحياة القلة، والفتات المتبقي للبقية. إن أرادت القلة الاستمتاع

بالأشياء الجيدة وبالإضافة لذلك خدمة الغالبية لها فلا يمكن تحقيق هذا إلا في حالة واحدة: أن تتعلم الغالبية الخضوع للقلة. وللتأكد من هذا يمكن تحقيق ذلك بالقوة. لكن هذه الوسيلة لها عيوب كثيرة؛ لأنها تشكل تهديدًا دائمًا للقلة، وهي أنه في يوم ما قد يتاح للغالبية الوسائل التي يستطيعون بها التغلب على القلة بالقوة. الأكثر من ذلك أن هناك أنواع كثيرة من العمل لا يمكن إتمامها بشكل صحيح إن لم يوجد شيء يحرك الإذعان سوى الخوف، ومن ثم فإن الإذعان الذى يُغرس بالخوف من القوة يجب أن يتحول إلى غرس عميق داخل قلب الإنسان. يجب على الإنسان أن يرغب ويحتاج للإذعان، بدلا من الخوف من العصيان. إن كان هذا هو المراد تحقيقه فيجب على القوة أن تحمل كل صفات الخير والحكمة. بحدوث هذا تستطيع القوة أن تدَّعي أن العصيان خطيئة وأن الإذعان فضيلة، وبمجرد إعلان هذا فسوف يقبل الكثيرون الإذعان لأنه جيد ويمقتون العصيان لأنه سيئ، أكثر من أن يكرهوا أنفسهم لأنهم جبناء. من وقت لوثر حتى القرن التاسع عشر اهتم المرء بأمر السلطة الواضحة والصريحة. عمل لوثر والبابا والأمراء على دعمها وتعزيزها، ومن ناحية أخرى عملت الطبقة الوسطى والعمال والفلاسفة على اجتثاثها من جذورها. كان القتال ضد السلطة في الدولة كما في الأسرة هو الأساس الذى قام عليه تطوير الشخصية المستقلة. كان القتال ضد السلطة متوائمًا مع الطابع الفكري الذي ميز فلاسفة التنوير

والعلماء. هذا الطابع النقدي نتج عن الإيمان بالعقل من جهة ومن وجهة أخرى من الشك في كل شيء قائم على التقاليد والعادات والخرافات والقوة. إن مبادئ من قبيل: "تحلَّ بالجرأة لتكون عاقلا" – "شك في كل شيء"... ميزت النزعة التي عزَّزت القدرة على قول "لا". تعد قضية أدولف إيخمان[2] رمزًا لهذا الموقف وذات دلالة مهمة جدًّا تتعدَّى ما اهتم به متهميه في قاعة المحكمة بأورشليم. إن إيخمان رمز للرجل المؤسسي البيروقراطي الذي يتحول أمامه الرجال والنساء والأطفال إلى مجرد أرقام. إنه رمز لنا جميعًا. نستطيع رؤية أنفسنا في إيخمان، ولكن الشيء المرعب بخصوصه هو أنه بعد رواية كل القصة من واقع اعترافاته، كان لديه القدرة على أن يدَّعي البراءة. كان من الواضح أنه إن تكرر الموقف مرة أخرى فسيعيد ما فعله ثانية، وكذلك نحن أيضًا.

إن الرجل المؤسسي فاقد للقدرة على العصيان. إنه لا يعلم أصلا الحقيقة التي يذعن لها. بداية من هذه المرحلة في التاريخ فإن القدرة على الشك والنقد والعصيان ربما تكون كل ما يفصل بين مستقبل البشرية ونهاية الحضارة.

---

2 أدولف أيخمان بالألمانية (Adolf Eichmann): أحد المسؤولين الكبار في الرايخ الثالث، وضابط في القوات الخاصة الألمانية أو ما تعرف بقوات العاصفة. ولد في 19 مارس 1906 ورحل في 1 يونيو 1962 . تعود إليه مسؤولية الترتيبات اللوجستية كرئيس جهاز البوليس السري جيستابو في إعداد مستلزمات المدنيين في معسكرات الاعتقال وإبادتهم فيما يعرف آنذاك بالحل الأخير. (المترجم)

أنبياء وكهنة

نستطيع أن نقول بلا مبالغة إن المعرفة بالأفكار العظيمة التي أنتجتها الإنسانية لم تنتشر قط بمثل ما انتشرت اليوم، وأنها لم تكن أقل فعالية في أي وقت أكثر من وقتنا هذا! إن أفكار أفلاطون وأرسطو والأنبياء والمسيح وسبينوزا وكانت معروفة الآن للملايين من الطبقات المتعلمة بأوروبا وأمريكا. إنها تُدرَّس في آلاف من معاهد التعليم العالي وبعضها يُعلَّم في الكنائس بتعدد طوائفها في كل مكان. يحدث هذا في عالم يتبع مبادئ الأنانية بلا حدود، والتي تنشر قومية هستيرية تعمل على إعداد مذبحة جماعية جنونية. كيف يمكن لأحد أن يفسر هذا التناقض؟

إن الأفكار لا تؤثر على الإنسان بعمق عندما تُدرس فقط كأفكار ومعتقدات. عادة عندما تُقدَّم الأفكار بهذه الطريقة فإنها تغير أفكارًا أخرى، وتستبدل المعتقدات القديمة بأخرى جديدة وتحل كلمات جديدة محل الكلمات القديمة. لكن كل هذا التغيير يحدث في المفاهيم والكلمات، فلماذا يجب أن يكون هناك فارق؟ من الصعب جدًّا على إنسان أن يتأثر بالأفكار وأن يقبض على الحقيقة ويمتلك ناصيتها. من أجل فعل هذا عليه أن يتغلب على مقاومات الكسل العميقة الجذور، والخوف من أن يكون على خطأ، والكف عن اتباع القطيع. إن مجرد الاطلاع

على أفكار أخرى ليس كافيًا حتى إن كانت الأفكار في حد ذاتها صحيحة وفعَّالة. لكن الأفكار يصبح لها تأثير على الإنسان إن تم معايشة الفكرة من قبل الشخص الذي يقوم بتعليمها: إن ظهرت في عالمنا المادي. إن عبَّر إنسان عن فكرة التواضع وكان متواضعًا، فبالتالي سيفهم المستمعون لهذه الفكرة ماهية التواضع. لن يفهموه فقط، لكنهم سيصدقون أنه يتكلم عن شيء حقيقي، وأن هذه ليست مجرد كلمات. بنفس الكيفية يسري ذلك على كل الأفكار التي يحاول الفيلسوف أو المعلم الديني أن ينقلها للآخرين.

نستطيع أن نطلق على هؤلاء الذين يعلنون عن أفكار - ليست بالضرورة جديدة - ويعيشونها أنبياءً. إن أنبياء العهد القديم[3] فعلوا هذا: أعلنوا أنه على الإنسان أن يجد إجابة بشأن وجوده، وأن هذه الإجابة ستعمل على تطوير عقله وحبه، وعلموا أيضًا أن التواضع والعدالة يرتبطان برباط لا فصام له بالحب والمنطق. لقد عاشوا ما علموه. لم يبحثوا عن القوة بل تجنبوها بكافة أشكالها؛ ليست فقط قوة أن تكون نبيًّا. لم يتأثروا بالقوة، ولكنهم أعلنوا الحقيقة حتى إن أودت بهم إلى السجن أو النفي أو الموت. لم يكونوا من نوعية الرجال التي تنعزل عن الجموع وتنتظر أن ترى ماذا سيحدث. لقد تجاوبوا مع شعوبهم لشعورهم بالمسئولية، وتحملوا تبعات ما أصاب

---

3 يقصد العهد القديم الخاص بإسرائيل. (المترجم)

الجميع. عاشت الإنسانية بداخلهم ولم تفارقهم. بسبب رؤيتهم للحقيقة شعروا بمسئولية أن يخبروا الجميع بها، ولم يقوموا بتهديد الناس بل أشاروا لهم إلى البدائل التي يواجهها الإنسان. إن الأمر لم يكن أن النبي قد تمنى أن يكون نبيًّا، فالحقيقة أن الأشخاص المزيفين فقط هم الذين رغبوا في ذلك. إن كونه نبيًّا كان بسيطًا لأن البدائل التي يراها بسيطة بدرجة كافية. لقد عبَّر النبي عاموس عن هذه الفكرة باختصار حين قال: "الأَسَدُ قَدْ زَمْجَرَ، فَمَنْ لاَ يَخَافُ؟ السَّيِّدُ الرَّبُّ قَدْ تَكَلَّمَ، فَمَنْ لاَ يَتَنَبَّأُ؟" (عاموس 3: 8). إن عبارة الرب قد تكلم هنا تعني ببساطة أن الاختيار أصبح واضحًا بشكل لا يمكن الخطأ فيه. لا مجال للشك هنا. لا مجال للمراوغة؛ من ثم فالإنسان الذي يشعر بالمسئولية هنا لا اختيار لديه سوى أن يصبح نبيًّا، سواء كان يعمل برعاية القطيع أو بزراعة كرمة أو بتطوير وتدريس الأفكار. إن وظيفة النبي أن يعرض للناس الحقيقة، وأن يريهم البدائل وأن يعترض؛ أن يصيح بصوت عال ليناد على الإنسان ويوقظه من حالة غفوته المعتادة. إنه الموقف التاريخي وحده الذي يصنع الأنبياء، وليست رغبة البعض في أن يكونوا أنبياء.

لدى الكثير من الأمم أنبياء. عاش بوذا تعاليمه، وظهر المسيح في جسد بشري، مات سقراط من أجل أفكاره، وعاش سبينوزا مبادئه، وجميعهم تركوا بصمة عميقة على الجنس البشري، خاصة لأن فكرتهم ظهرت بشكل جلي في حياة كل منهم.

يظهر الأنبياء في فترات فاصلة من تاريخ البشرية. يموتون ويتركون رسالتهم التي يقبلها الملايين ويعتزون بها. وللسبب نفسه تُستغل الفكرة من الآخرين ليستفيدوا من ارتباط الناس بالأفكار من أجل أهداف خاصة بهم تتعلق بالحكم والسيطرة. دعنا نطلق على هؤلاء الرجال الذين يستفيدون من أفكار الأنبياء بالكهنة. يعيش الأنبياء أفكارهم، بينما يقدمها الكهنة للناس المرتبطين بتلك الأفكار. يعلن الكهنة أهمية صياغة هذه الأفكار، وبشكل طبيعي تصبح الصياغة شديدة الأهمية عندما تموت الخبرة نفسها، فكيف يمكن على أية حال يمكن للمرء أن يتحكم في الناس عبر التحكم في أفكارهم إن لم تكن هناك صياغة صحيحة؟ يستخدم الكهنة الأفكار لينظموا الناس ويتحكموا بهم عبر التعبير عن الصياغة الصحيحة للفكرة، وعندما قاموا بتخدير الناس أعلنوا أن الإنسان ليست لديه القدرة الكافية على الوعي وإدارة حياته بنفسه، وأنهم - الكهنة - يتصرفون بدافع الواجب والشفقة عندما يتمون وظيفة التحكم في البشر الذين إن تُرِكوا لحال سبيلهم سيخافون الحرية. لم يتصرف كل الكهنة بالطبع على هذا المنوال، ولكن غالبيتهم تصرفوا بهذه الكيفية خاصة من نجح في الوصول لمركز قوة.

نستطيع أن نجد الكهنة ليس فقط في الدين، ولكن أيضًا في الفلسفة والسياسة. كل مدرسة فلسفية لها كهنتها. عادة ما يكونوا متعلمين بشكل راقٍ، وتصبح مراجعة فكرة المفكر الأصلي شغلهم الشاغل. ينقلونها ويقومون بتفسيرها ليجعلوها

متاحة للجميع. سنجد أيضًا الكهنة السياسيين. لقد رأينا ما يكفي منهم في المائة والخمسين عامًا الأخيرة. لقد نقلوا فكرة الحرية لحماية المصالح الاقتصادية الخاصة بطبقتهم الاجتماعية. في القرن العشرين تولى الكهنة إدارة أفكار الاشتراكية. في الوقت الذي كانت تلك الأفكار تدعو إلى تحرير واستقلالية الإنسان، أعلن الكهنة أنه بطريقة ما أو بأخرى فإن الإنسان غير قادر على أن يصبح حرًّا، أو أنه على الأقل لن يصبح حرًّا لفترة طويلة. بهذا انتحلوا العذر ليتولوا المسئولية ويقرروا كيف يمكن صياغة الفكرة، ومن هو المؤمن الحقيقي بها ومن هو المؤمن غير الحقيقي. عادة ما يقوم الكهنة بإرباك البشر بدعوى أنهم خلفاء النبي، وأنهم يعيشون ما يعظونه. في الوقت الذي يستطيع الطفل فيه أن يرى أنهم يعيشون بالضبط عكس ما يكرزون به، ويتعرض غالبية الناس للعصف الذهني بدرجة مؤثرة، وفي النهاية يرون أنه إن عاش الكهنة في أبهة وعظمة فإن هذا يفعلونه كتضحية، لأن عليهم أن يمثلوا الفكرة العظيمة، وأنهم إن قاموا بالقتل بقسوة، فإن هذا ينتج عن إيمانهم الثوري!

لا يوجد موقف تاريخي يستدعي ظهور الأنبياء أكثر من موقفنا. إن الوجود البشري كله مُهدَّد بجنون إعداد حرب نووية. لقد قادنا العمى وعقلية العصر الحجري إلى تلك المرحلة حيث يتحرك الجنس البشري مسرعًا بشكل تراجيدي إلى إنهاء نفسه في نفس اللحظة التي يكون فيها قريبًا جدًّا من أعظم

منجزاته. في تلك اللحظة تحتاج البشرية إلى الأنبياء حتى وإن كان من المشكوك فيه أن تغطي أصواتهم على أصوات الكهنة. يُعتبر برتراند راسل من القليلين الذين تجسدت فيهم الفكرة وتحول بهم الموقف التاريخي للبشرية من المعلمين إلى الأنبياء. إنه مفكر عظيم ولكن هذا لا يعد سببًا ضروريًا لكونه نبيًا. إنه بصحبة أينشتاين وشفايتزر[4] يمثل إجابة المجتمع الغربي تجاه تهديد وجوده، وذلك لأن ثلاثتهم أعلنوا وحذروا وأشاروا إلى البدائل. لقد عاش شفايتزر فكرة المسيحية بالعمل في لمباريني[5]. عاش أينشتاين فكرة المنطق والعقل والإنسانية برفضه الانضمام إلى الأصوات الهستيرية المنادية بالقومية في الإنتليجينسيا[6] الألمانية في عام 1914، وفي مرات عديدة أخرى. لعدة عقود عبر برتراند راسل عن أفكاره عن العقلانية والإنسانية في كتبه. لكن في السنوات الأخيرة ظهر بوضوح في قلب الساحة ليظهر للجميع عن أنه عندما تتعارض قوانين

---

4 ألبرت شفايتزر فيلسوف وطبيب وعالم ديني وموسيقي ألماني، أصله من الألزاس. حصل عام 1952 على جائزة نوبل للسلام لفلسفته عن تقديس الحياة. لكن من أعظم وأشهر أعماله تأسيس وإدارة مستشفى في الغابون، غرب وسط إفريقيا. (المترجم)

5 لمباريني هي المكان المعروف الآن بالجابون في إفريقيا. (المترجم)

6 مصطلح يطلق في كثير من الأحيان على المثقفين. والأنتلجنسيا هي كلمة بولندية الأصل، نزحت إلى روسيا بمناسبة الوضع التاريخي الذي كان أكثر من أي وضع تاريخي آخر، لإفراز تلك الآلية التي تفسح المجال لظهور ذلك المثقف الذي يقف على مسافة بعيدة من نظام قائم. ويكون أكمل تعبير عن الأنتلجنسيا بالأخص الدعوة إلى تصورات مستقبلية تبشر بنظام جديد يحل محل النظام القديم. (المترجم)

الدولة مع قوانين الإنسانية فعلى الإنسان الحقيقي أن يختار قوانين الإنسانية.

لقد أدرك راسل أن الفكرة حتى وإن كانت متجسدة في شخص واحد يمكنها أن تكتسب دلالة اجتماعية إن تجسدت في مجموعة. عندما تحاجج إبراهيم مع الله حول مصير سدوم، وحاول الاعتراض على عدالة الله قال إنه يجب عدم تنفيذ الحكم إن كان في سدوم عشرة رجال أبرار فقط وليس أقل. إن كان العدد أقل من عشرة بمعنى أنه إذا لم تتوفر أصغر مجموعة تتجسد فيها الفكرة فحتى إبراهيم لن يستطيع توقع خلاص المدينة وقتها. لقد حاول راسل إثبات وجود العشرة رجال القادرين على إنقاذ المدينة؛ لهذا نظَّم المسيرات وتظاهر معهم وحُملوا جميعًا في عربات الشرطة. بالرغم من كونه صوتًا في الظلام إلا أنه ليس صوتًا معزولًا. إنه قائد الكورس. سواء كان ذلك الكورس للتراجيديا اليونانية أو للسيمفونية التاسعة لبيتهوفن فإن الأعوام القادمة وحدها ستكشف ذلك.

من بين الأفكار التي يجسدها راسل في حياته، وربما تكون أول فكرة: حق وواجب الإنسان في العصيان. بإشارتي هنا للعصيان فإني لا أقصد ذلك التمرد اللا عقلاني الذي لا يحمل سببًا والذي يعصي لأنه ليست لديه التزامات في الحياة سوى قول لا. إن هذا النوع من العصيان المتمرد أعمى وفارغ بنفس قدر الإذعان المناقض له غير القادر على قول لا. إني أتكلم هنا

عن الرجل الذي بمقدوره أن يقول لا؛ لأنه يستطيع التأكيد بشكل راسخ، ويستطيع أن يعصي فقط بسبب طاعته لضميره وللمبادئ التي اختارها. إني أتحدث هنا عن الثوري وليس المتمرد. تُعتبر الطاعة في أغلب الأنظمة الاجتماعية الفضيلة العظمى، والعصيان الخطيئة الكبرى. في الحقيقة تشير ثقافتنا في أغلب الأوقات التي يشعر فيها المرء بالذنب إلى أن هذا يحدث بسبب الخوف من كونه عاصيًا. إنهم لا يهتمون هنا بالمسألة الأخلاقية كما يدَّعون، ولكن فقط بعصيانهم أمرًا. هذا ليس مفاجئًا في الوقت الذي يعلن فيه التعليم المسيحي باستمرار عن كون عصيان آدم كان الأمر الذي أدى إلى إفساده هو وسلالته بشكل أساسي، وأنه فقط عن طريق النعمة الإلهية أمكن إنقاذ الإنسان من الفساد. لقد تماشت تلك الفكرة بالطبع مع الوظيفة الاجتماعية للكنيسة والتي دعَّمت الحكام بتعليمها شر العصيان. تمرد فقط ضد الفكرة هؤلاء الرجال الذين أخذوا بجدية التعاليم الإنجيلية عن الإنسانية والأخوة والعدالة ضد تلك السلطة غير الدينية، ما أدى بالكنيسة باعتبارهم مرات عديدة متمردين وخطاة ضد الله. لم تغير الاتجاهات السائدة في البروتستانتية شيئًا من هذا، بل على العكس؛ ففي الوقت الذي أبقت فيه الكنيسة الكاثوليكية الوعي بالتمايز بين السلطة الروحية والدنيوية، فإن البروتستانتية انحازت إلى القوى الدنيوية. لقد عبَّر لوثر[7] التعبير الأقوى والأقسى عن هذا الاتجاه

---

7 مارتن لوثر راهب ألماني، وقسيس، وأستاذ للاهوت، ومُطلق عصر الإصلاح في أوروبا، بعد

عندما كتب عن ثورة الفلاحين الألمان في القرن السادس عشر: "من أجل فهذا فعلى كل شخص يستطيع أن يسدد ضربة أو يطعن أو يقتل بشكل سري أو علني أن يتذكر أنه لا شيء أكثر شيطانية وضررًا وتسميمًا من كونه متمردًا".

بالرغم من اختفاء الإرهاب الديني، فإن السلطات والأنظمة السياسية استمرت في اعتبار الإذعان حجر الزاوية لوجودها. لقد قاتلت الثورات العظيمة في القرنين السابع والثامن عشر ضد السلطات الملكية، ولكن سرعان ما ارتد الإنسان لاعتبار الإذعان لخلفاء الملك فضيلة، بغض النظر عن مسمياتهم الجديدة.

أين هي السلطة اليوم؟ في الدول الاستبدادية نجدها بشكل صريح في سلطة الدولة، تُدعم بتقوية احترام السلطة في الأسرة والمدرسة. من جانب آخر فإننا نجد في الديمقراطيات الغربية الشعور بالفخر للتغلب على التسلطية منذ القرن التاسع عشر. ولكن هل حدث هذا بالفعل، أم تغير فقط وجه السلطة؟

يعد هذا القرن بلا منازع قرن البيروقراطيات المُرتّبة هرميًا في الحكومة والأعمال والنقابات العمالية. تتعامل هذه البيروقراطيات مع الأشخاص والأشياء على نفس المنوال: تتبع

اعتراضه على صكوك الغفران. (المترجم)

مبادئ محددة خاصة المبدأ الاقتصادي الخاص بالميزانية وتحديد الكميات والكفاءة القصوى والربح. وهم يعملون بنفس كيفية عمل حاسب آلي تم برمجته بكل هذا المبادئ. لقد أصبح الفرد رقمًا، وتحول إلى مجرد شيء. لكن لأنه لا توجد سلطة بشكل صريح والإنسان نفسه ليس مجبرًا على الطاعة، يقع تحت وهم أنه يتصرف بحرية، وأنه يتبع فقط سلطة المنطق. من يستطيع عصيان المنطق؟ من يستطيع عصيان بيروقراطية الحاسب الآلي؟ من يستطيع العصيان في الوقت الذي يكون فيه غير واعٍ أصلا بإذعانه؟ يحدث هذا أيضًا في الأسرة وفي التعليم. لقد قادتنا نظريات التعليم التقدمي الفاسدة إلى ذلك الوضع حيث لا يجد الطفل أحدًا يخبره بما عليه عمله ولا يعطى أوامر ولا يعاقب على فشله في تنفيذها. على الطفل فقط أن يعبِّر عن نفسه ولكن من اليوم الأول يزرع بداخله احترام غير مقدس للتطابق، والخوف من أن يصبح مختلفًا والرعب المصاحب لهذا من الانفصال عن القطيع. إن الرجل المؤسسي الذي تربى في الأسرة والمدرسة والذي أكمل تعليمه في مؤسسة كبرى له آراء، ولكنه لا يملك قناعات راسخة. إنه يلهي نفسه ولكنه غير سعيد. إنه حتى قادر على التضحية بحياته وحياة أطفاله بطاعة تبدو طواعية لقوى مجهولة غير مشخصنة. يمكنه تقبُّل تعداد الموتى والتي أصبحت موضة شائعة في المناقشات حول الحرب النووية:

نصف السكان ميتون أو المدينة بأكملها – لا يهم.. من الممكن قبول هذا، ولكن لا يمكن قبول موت فردين أو ثلاثة!

إن السؤال عن العصيان اليوم له أهمية خطيرة. في الوقت الذي بدأ فيه التاريخ البشري – طبقًا للتوراة – بعصيان آدم وحواء، والذي بدأت فيه الحضارة – طبقًا للأساطير اليونانية – بعصيان بروميثيوس فليس من المستبعد أن ينتهي التاريخ البشري بفعل إذعان للسلطات التي بدورها تذعن لأصنام السلطة العليا والفخر الوطني والانتصارات العسكرية البائدة، ولمن سيعطي الأوامر بالضغط على الزر القاتل لهؤلاء الذين يطيعون السلطة وأصنامها.

نستخلص مما سبق أن العصيان بالمعنى الذي أوردناه يعتبر تأكيدًا على العقلانية والإرادة. لا يعتبر اتجاها رافضا لشيء ما في المقام الأول، ولكن اتجاها مؤيدا لشيء ما؛ من أجل أن يمنح الإنسان القدرة على الرؤية، وأن يقول ما يعتقد ويرفض قول ما لا يعتقد. لا يحتاج الإنسان لفعل هذا أن يكون عدوانيًّا أو متمردًا، لكنه يحتاج لأن يبقى متيقظًا ومنتبهًا بشكل كامل لتحمل مسئولية أن يفتح أعين الآخرين الذين في خطر الهلاك وهم غارقون في سباتهم.

كتب كارل ماركس من قبل عن قول بروميثيوس أنه يُفضِّل أن يظل مقيدًا في صخرته على أن يكون عبدًا طائعًا للآلهة، إنه بهذا يصبح القديس الراعي لكل الفلاسفة. يكمن

هذا في تجديد الوظيفة البروميثيوية للحياة ذاتها. إن مقولة ماركس هنا تشير بكل وضوح للعلاقة بين الفلسفة والعصيان. لم يكون أغلب الفلاسفة عصاة لسلطاتهم في وقتهم. أطاع سقراط السلطة بقبوله الموت، ورفض سبينوزا منصب أستاذ جامعي لئلا يجد نفسه قد تورط في صراع مع السلطة. كان كانت أيضًا مواطنًا مخلصًا. قام هيجل في أيامه الأخيرة باستبدال تعاطفه الثوري الفتي بتمجيد الدولة. بالرغم من كل هذا كان بروميثيوس قديسهم الراعي. حقيقي أنهم ظلوا داخل قاعات محاضراتهم ودراساتهم وأنهم لم يخرجوا إلى مسرح الأحداث، لكن كانت لديهم أسباب عديدة لفعل ذلك لا مجال لمناقشاتها الآن. لكونهم فلاسفة كانوا عصاة لسلطة الأفكار التقليدية والمفاهيم والأكلاشيهات التي كانت تدرس وتُعلَّم في ذلك الوقت. لقد قاموا بجلب النور لأماكن الظلمة، وإيقاظ هؤلاء الذين في حالة سبات... لقد جرءوا على أن يعرفوا!

إن الفيلسوف عاص للأكلاشيهات وللرأي العام بسبب طاعته للعقلانية والإنسانية. هذا يحدث بالذات لأن العقلانية عالمية تتجاوز كل الحدود القومية، والفيلسوف الذي يتبعها بالتالي مواطن عالمي يهتم فقط بالإنسانية وليس ذلك الشخص أو غيره أو تلك الأمة أو غيرها. إن العالم هو وطنه وليست البقعة التي ولد فيها.

لم يعبر أحد عن الطبيعة الثورية للفكر بشكل أكثر بريقًا من برتراند راسل. كتب في كتابه مبادئ إعادة التشكيل الاجتماعي:

"يخاف الناس من التفكير أكثر من خوفهم من أي شيء آخر على الأرض؛ أكثر من الدمار وأكثر حتى من الموت ذاته! إن عملية التفكير مدمرة وثورية؛ مهلكة ومرعبة. يتعامل التفكير بلا رحمة مع الحظوة المؤسسة على المواقف والعادات المريحة. التفكير فوضوي ولا يتبع أي قانون؛ لا يبالي بالسلطة ويهمل حكمة الأعوام المختبرة. ينظر التفكير إلى قاع الجحيم بلا خوف. يرى إنسانًا تحيطه أهوال الصمت لا تستر عورته، يتصرف بفخر ولا مبالاة كأنه سيد الكون. إن التفكير عظيم ورشيق وحر؛ نور العالم وعظمة الإنسان الحقيقية.

لكن إن كان الفكر ملكًا للجميع وليس ميزة تقتصر على قلة من الناس فلا بد أننا فعلنا هذا وشعور بالخوف ينتابنا. إنه الخوف الذي يجعل الناس يتراجعون؛ الخوف من أن تكون هذه المعتقدات التي احتفوا بها مجرد أضاليل؛ الخوف من أن تكون المؤسسات التي يعيشون من أجلها ضارة؛ الخوف من أن يكونوا ليس جديرين بالاحترام الذي نصبوه لأنفسهم. هل يجب على الإنسان العامل أن يفكر في الملكية بحرية؟ وماذا يليق بنا أن نعمل نحن للأغنياء؟ هل يجب على الشباب من الجنسين أن يفكروا بحرية في الجنس؟ وماذا سوف يحدث عندئذ

للفضيلة؟ هل يجب على الجنود أن يفكروا بحرية في الحرب؟ وماذا سوف يكون مصير الانضباط العسكري؟ إذن فلننطلق بعيدًا عن الفكر ونعود إلى ظلال التحيز خشية أن تتعرض الملكية والفضيلة والحرب للخطر، لذلك يجب أن يكون الإنسان مغفلا وكسولا وجائرًا وإلا ستتحرر أفكاره، فإن تحررت بالفعل أفكاره فمن الممكن أن يفكر البشر بشكل مختلف عن تفكيرنا، ويجب تجنب تلك الكارثة بأي ثمن. لذا يتجادل خصوم الفكر في أغوار لا وعي أرواحهم، وبنفس الطريقة يتصرفون في كنائسهم ومدارسهم وجامعاتهم".

إن قدرة برتراند راسل على العصيان مغروسة لا في مبادئ مجردة ولكن في أهم تجربة حقيقية وهي حب الحياة. يسطع هذا الحب للحياة في كتاباته كما في شخصه. إنها ميزة نادرة الآن خاصة في البلاد التي تعيش في الوفرة. يخلط الكثيرون الرعب بالفرح والإثارة بالاهتمام والاستهلاك بالكينونة. إن الشعار النيكروفيلي "فليحيا الموت" بينما يستخدم بوضوح فقط بواسطة الفاشيين، فإنه يملأ قلوب الكثيرين من الذين يعيشون في بلاد الوفرة ولكنهم لا يعون ذلك بأنفسهم. ربما تشكل تلك الحقيقة السبب الأهم الذي يشرح لنا لماذا يذعن غالبية البشر لقبول الحرب النووية، وبالتالي تدمير الحضارة، ولم يأخذوا سوى خطوات قليلة لمنع تلك الكارثة. على العكس حارب برتراند راسل ضد المذبحة ليس لأنه مناصرًا للسلام أو بعض المبادئ المجردة، ولكن لأنه إنسان يحب الحياة.

لأجل نفس السبب فهو لا يهتم بالأصوات التي تضرب طوال الوقت على وتر واحد وهو شر الإنسان، فهم في الحقيقة يوضحون بشكل أكبر طبيعتهم الشخصية، وأمزجتهم الكئيبة لا طبيعة البشر. إن راسل لا يعد رومانتيكيًّا عاطفيًّا، لكنه صلب الرأي، ناقد، واقعي يعي مجريات اللحظة وأعماق الشر والغباوة في قلب الإنسان، ولكنه لا يخلط هذه الحقيقة مع الفساد الموروث المزعوم الذي يهدف إلى أن يمنطق نظرة أولئك الملوثين بالكآبة لدرجة أنهم لا يؤمنون بهبة الإنسان وقدرته على خلق عالم يجعله يشعر بالراحة. كتب راسل في كتابه التصوف والمنطق: عبادة الإنسان الحر 1903: "باستثناء هذه الأرواح النادرة التي ولدت بلا خطيئة، هناك سواد حالك ينبغي أن تعبره قبل أن تستطيع دخول المعبد. بوابة هذا الظلام هي اليأس وأرضيته ممهدة بأحجار الحزن على الآمال الضائعة. هناك لا بد أن تموت النفس، ويُذبح الشغف والرغبة الجامحة، لأنه بهذا فقط يمكن أن تتخلص الروح من طغيان القدر. لكن خارج هذه الظلمة الحالكة فإن بوابة نكران الذات تؤدي إلى ضوء الحكمة الساطعة التي بإشعاعها تشرق رؤية جديدة وفرح ورقة جديدين ليسعد قلب هذا الحاج". كتب بعدها في مقالات فلسفية 1919: "لولا هؤلاء الذين يشعرون بأن الحياة على الأرض ستصبح كالحياة في سجن، لولا وجود النوافذ التي يقبع خلفها عالم أعظم... لهؤلاء الذين يؤمنون بقدرة الإنسان اللامتناهية والذين يبدون متغطرسين في نظر

الآخرين، والذين يشتهون الحرية الرواقية والتي تتأتى بالسيادة على العواطف والرغبات أكثر من السيادة النابوليونية التي ترى ممالك هذا العالم تحت أقدامها. بكلمة واحدة.. لهؤلاء الرجال الذين لا يجدون البشر أهدافًا مناسبة لعبادتهم، فإن العالم البراجماتي سوف يبدو ضيقًا وتافهًا يجرّد الحياة من كل ما يعطيها قيمة، ويجعل الإنسان نفسه أقل شأنًا بحرمان الكون الذي يتأمله من كل رونقه وبهائه".

لقد عبر راسل بعبقرية عن آرائه حول ذلك الشر المزعوم للإنسان في كتابه "مقالات غير مشهورة" 1950: "بعد أن اعتبر اللاهوت التقليدي الأطفال أعضاء الشيطان، واعتبرتهم عقول المصلحين التربويين ملائكة نورانية، ارتدوا مرة أخرى إلى شياطين صغيرة، ليسوا شياطين من وجهة النظر اللاهوتية يلهمهم فيها شيطان الشر؛ لكنهم رجس فرويدي علمي يلهمهم في هذا اللاوعي. إنهم أكثر شرًا مما يصفهم به الرهبان. إنهم يظهرون وفقًا للكتب الحديثة مهارة وإصرارًا في التخيلات الآثمة التي ليس لها مثيل في الماضي إلا عند القديس أنطونيوس. هل هذا يشكل الحقيقة الموضوعية؟ أم أنه مجرد تعويض خيالي مراهق لأنه لم يعد يُسمح لهم أن يضربوا تلك الآفات الصغيرة؟ دع الفرويديين يجيبون عن هذا".

يرينا مقطع آخر من كتابات راسل كيف عبر ذلك المفكر الإنساني بعمق عن هذا الحب للحياة. كتب في "النظرة العلمية"

1931: "يجد العاشق والشاعر والصوفي الإشباع الكامل بشكل لا يعرفه اللاهث خلف القوة، فهم يستطيعون استبقاء موضوع محبتهم في الوقت الذي يجب على الباحث عن القوة أن يرتبط دومًا بتلاعبات ومداولات جديدة إن لم يكن عليه أن يعاني من الشعور بالخواء. عندما أشرف على الموت ليس عليَّ أن أشعر أني عشت عبثًا. لقد شاهدت الأرض تتحول إلى الحمرة وقت الغروب، والندي يتألق وقت الصباح، والثلج يبرق تحت الشمس المغطاة بالصقيع. لقد شممت المطر بعد الجفاف، وسمعت ضربات الأطلنطي العاصف على صخور شواطئ كورنويل. يستطيع العلم أن يهب الكثير من الناس تلك المتع ومتع أخرى أيضًا أكثر مما تستطيع أي طريقة أخرى أن تمنحهم إياه، فلو حدث ذلك فسوف تُستخدم قوة العلم بحكمة، ولكن عندما تُنتزع تلك اللحظات التي تدين لها الحياة بقيمتها فإن العلم لن يستحق الإعجاب بغض النظر عن مدى المهارة والتفاصيل فإن هذا العلم لن يقود الإنسان سوى إلى اليأس".

يعد راسل رجلًا أكاديميًّا يؤمن بالعقلانية، ولكن كم يبتعد عن نظرائه الأكاديميين! بالنسبة لهؤلاء الأكاديميين فالشيء الذي يحركهم هو فهم العالم بشكل عقلي. يشعرون بأن فكرهم يستنفد الواقع، وأن لا شيء ذو أهمية لا يمكنهم فهمه عن طريق العلم. يشعرون بالشك في كل شيء لا يستطيعون قولبته في نمط فكري واضح، ولكنهم غير شكاكين نحو اتجاههم العلمي. إنهم يهتمون بنتائج عمليات التفكير أكثر من عملية

التنوير التي تحدث في الشخص الذي يقوم بها. ناقش راسل هذا النوع من الاتجاهات الفكرية عندما ناقش البراجماتية في كتابه "مقالات فلسفية" 1910: "تحتكم البراجماتية إلى مرونة العقل الذي يجد على سطح ذلك الكوكب كل مادة المخيلة التي تشعر بالثقة في التقدم ولكنها غير واعية بالحدود اللا إنسانية للقوة البشرية؛ تلك القوة التي تعشق المعارك بكل مخاطرها لأنها لا يساورها الشك في انتصارها، تشتهي الدين كما تشتهي السكك الحديدية والأنوار الكهربية لتساعدها في شئون تلك الحياة؛ لا كي تمدها بموضوعات لا إنسانية تشبع ظمأها للكمال أو بهدف للعبادة دون استحقاق".

على نقيض البراجماتية يجد راسل التفكير العقلاني ليس مطلوبًا فيه اليقينية ولكنه مغامرة وفعل تحرير للذات والشجاعة التي تغير المفكر وتجعله أكثر وعيًا وأكثر إحساسًا بالحياة.

إن راسل هو رجل إيمان؛ ليس بالطبع إيمانًا على الشاكلة اللاهوتية ولكن إيمان بقوة العقل، وإيمان بقدرة الإنسان على خلق جنته الخاصة بجهوده الشخصية لأن "الزمن الجيولوجي قد مر"، لذلك كتب في كتابه: "عرضة الإنسان للخطر من القنبلة الهيدروجينية" 1954: " لقد وُجد الإنسان حتى الآن لمدة قصيرة. مليون عام على الأكثر. ما حققه في تلك المدة خاصة في الستة آلاف عام الأخيرة هو شيء جديد تمامًا في

تاريخ الكون على الأقل بقدر ما نعرفه حتى الآن. لعقود لا نهائية والشمس تشرق وتغرب، والقمر يكبر ويتضاءل، والنجوم تلمع فيه ليلا. ولكن فقط بمجيء الإنسان تم استيعاب تلك الأمور. لقد كشف الإنسان عن الأسرار في عالم الفلك والذرة والتي بدت غير قابلة للكشف. أظهر بعض الناس في الفن والأدب والدين من التسامي في الإحساس ما يجعل الجنس البشري جديرًا بالبقاء. هل يوشك كل ذلك على الانتهاء بفضل خطر مبتذل لأن قلة من الناس قادرة على التفكير في الإنسان أفضل من تلك المجموعة أو أخرى؟ هل حُرم جنسنا البشري من الحكمة حتى لا يكون قادرًا على الحب المتجرد؟ هل نحن بذلك العمى لتلك القواعد البسيطة لحماية النفس؟ هل يكون الدليل الأخير لذكاء تلك الحكمة السخيفة هو إعدام كل أنواع الحياة على ذلك الكوكب؟ حينئذ لن يكون وحده الإنسان الذي سيهلك، ولكن أيضًا النباتات والحيوانات التي لا يستطيع أحد اتهامها بالشيوعية أو معاداة الشيوعية. لا أستطيع تصديق أن تكون هذه هي النهاية. وددت لو ينسى البشر خلافاتهم للحظة ويفكرون مليًّا. إن تركوا أنفسهم يحيون فإن انتصارات المستقبل سوف تتجاوز بشكل لا يمكن قياسه انتصارات الماضي. إن اخترنا التقدم المستمر سنجد أمامنا السعادة والمعرفة والحكمة. هل يجب علينا بدلا من ذلك أن نختار الموت لأننا لا نستطيع نسيان خلافاتنا؟ إني أناشد الإنسانية كفرد منها: تذكروا إنسانيتكم وانسوا كل شيء آخر.

إن استطعتم فعل ذلك فإن الطريق مفتوح لجنة جديدة، وإن لم تستطيعوا فلا شيء يقبع أمامكم سوى الموت الكوني".

هذا اليقين يستمد جذوره من صفة لا يستطيع أحد بدونها فهم فلسفته أو صراعه ضد الحرب وهي حبه للحياة. ربما لا يعني هذا شيئًا للكثيرين. إنهم يعتقدون أن كل إنسان يحب الحياة. ألا يتشبث بها الجميع عندما يتعرضون للتهديد؟ أليست لديهم مساحة عظيمة من المرح والإثارة والتسلية؟

إن الناس لا يتشبثون بالحياة في المقام الأول عند تعرضهم للخطر، وإلا كيف يفسر أحد سلبيتهم الشديدة أمام تهديد الإبادة النووية؟ أكثر من ذلك فإن الناس يخلطون بين الإثارة والفرح، وبين المتعة الشديدة وحب الحياة. فهم لا يشعرون بالفرح مع كونهم يحيون في رغد العيش. الحقيقة أن كل الفضائل التي تُمدَح الرأسمالية بسببها كالنزعة الفردية والقابلية لتحمل المخاطر والاستقلالية قد اختفت من المجتمع الصناعي وتظهر فقط في أفلام العصابات ورعاة البقر. في ظل التصنيع البيروقراطي المتمركز، وبغض النظر عن الأيدولوجية السياسية يتزايد عدد الناس الذين يضجرون من الحياة ولديهم الرغبة في الموت ليتغلبوا على ضجرهم. إنهم هؤلاء الأشخاص الذين يصيحون "نفضل الموت على اللون الأحمر[8] better dead than red"، لكن خلف ذلك الشعار يقبع شعار

8 المقصود هنا بالأحمر الشيوعية، فهو لون علمها. كان شعارًا سائدًا وقتها. (المترجم)

آخر "نفضل الموت على الحياة"، وكما أشرت سابقًا فإن هذا التوجه المتطرف قد وُجِد في الفاشيين بشعارهم "فليحيا الموت". لم يفطن أحد لذلك أكثر من ميجيل أونا مونو[9]، عندما تحدث للمرة الأخيرة في حياته في جامعة سالامنكا عندما كان رئيسًا لها مع بداية الحرب الأهلية الإسبانية. كانت المناسبة وقت ذلك هي خطبة الجنرال ميلان أستاي، والذي كان شعاره المفضل: "فليحيا الموت" وصاح أحد أتباعه وقتها بذلك الشعار في مؤخرة القاعة. عندما أنهى الجنرال خطبته نهض أونامونو وبدأ في التحدث قائلا: "لقد سمعت الآن صيحة نيكروفيلية عبثية: "فليحيا الموت" ويجب أن أخبركم أنه مع كوني قضيت حياتي كلها في تشكيل المفارقات التي أثارت الغضب غير المُفسَّر للآخرين كخبير بالسلطة، فإني أرى تلك المفارقة الغريبة كريهة للغاية بالنسبة لي. إن الجنرال ميلان أستاي مقعد، ودعنا نقول بلا أي نغمة استخفاف إنه مصاب حرب، وكذلك كان سربانتس[10]، ولكن للأسف يوجد الكثير من المعوقين هنا أيضًا في إسبانيا، وسيكون هناك المزيد منهم إن لم يأت الرب لمساعدتنا. من الأشياء المؤلمة أن يرسم الجنرال ميلان الصورة

---

9 ميجل ديه أونامونو بالإسبانية Miguel de Unamuno: فيلسوف وشاعر وروائي ومؤلف تمثيليات إسباني. وُلد في بلباو في 29 سبتمبر 1864. عيِّن أستاذًا للغة اليونانية بجامعة سلامنكا عام 1891، ثم رئيسًا للجامعة في عام 1900. بالإضافة إلى كتبه الكثيرة، كتب أونامونو ما يزيد على 3,000 مقالة قصيرة. اكتسب عداء أربع حكومات متعاقبة بسبب نقده السياسي الجريء. وتوفي في شلمنقة 31 ديسمبر 1936. (المترجم)

10 الكاتب الإسباني الشهير مؤلف دون كيخوته. (المترجم)

العامة لنفسية الجماهير. ذلك الكسيح الذي يفتقد تلك القوة الروحية لسربانتس تعوَّد البحث عن الراحة المشؤومة بإفساد من حوله. لم يعد بقادر على كبح جماح نفسه. إنه يصرخ: "إلى الأسفل أيها الذكاء... فليحيا الموت". لقد وجد من يسانده من الفالانجستيين[11].

هنا يقبع معبد الفكر، وأنا كاهنه الأعلى، وأنتم من تدنسون تخومه، لأن لديكم قوة بهيمية أكثر مما ينبغي، لكنكم لن تكونوا مُقنعين، فأنتم تفتقدون لما يحتاجه المرء كي يستطيع الإقناع: العقلانية وحق النضال. من العبث حضكم على التفكير في إسبانيا... لقد انتهيت".

بالرغم من ذلك فإن القابلية للموت التي وصفها أونامونو بالنيكروفيلية ليست نتاجًا للفكر الفاشي وحده، ولكنها ظاهرة مغروسة بعمق في تلك الثقافة التي تزداد في السيطرة على الناس بواسطة المنظمات البيروقراطية والمؤسسات الكبرى والحكومات والجيوش، والسيطرة المركزية للأشياء المصنوعة بواسطة الإنسان كالآلات المختلفة. هذه الصناعة البيروقراطية

---

11 هي الكتائب الإسبانية لجمعيات الهجوم الوطني النقابي. بالإسبانية Falange Española de las Juntas de Ofensiva Nacional Sindicalista: المعروفة أيضًا باسم الكتائب أو الفلانخي أو الفلانخيس، وهي التسمية التي تضم العديد من الحركات والأحزاب السياسية التي يعود تاريخها إلى ثلاثينيات القرن الماضي، وعلى الأخص الحركة الفاشية الأصلية في إسبانيا. (المترجم)

تهدف إلى تشييء الإنسان؛ لإحلال أجهزة تقنية بدلا من الطبيعية، واستبدال المكونات العضوية بأخرى لا عضوية.

تتجلى تلك المحبة للتدمير والآلات، وازدراء المرأة (المرأة بمثابة تجلٍ للحياة للرجل مثلما الرجل تجلٍ للحياة للمرأة) في مانيفستو المستقبل الذي أصدره مارينيتي[12] عام 1909، والذي يعد نذيرًا مبكرًا للفاشية الإيطالية. لقد كتب:

- ذلك العالم مُزخرف بجمال جديد؛ جمال السرعة. عربة السباق يُزين إطارها بأنابيب مبهرجة كالثعابين بأنفاس متفجرة. السيارة المسرعة والتي تبدو كأنها تركض على قذيفة أكثر جمالا من نصر ساموثراكي[13].
- دعنا ننشد أغنية عن الإنسان الجالس على مقود السيارة يلف العالم كله مسابقًا الزمن حول مدار الكرة الأرضية.
- لماذا يجب أن ننظر خلفنا عندما نقتحم تلك البوابات الغامضة للمستحيل؟ لقد مات بالأمس كل من الوقت والمساحة. نحن نعيش بالفعل في الممكن منذ تلك اللحظة التي خلقنا فيها السرعة والحضور الأبدي الأزلي.

12فليبي توماسو إميليو مارينيتي ولد في 22 ديسمبر 1876، وتوفي في 2 ديسمبر 1944، كان شاعرا وأديبًا ورئيس تحرير. مؤسس الحركة المستقبلة (Futurismo) في الفن والموسيقى والأدب أوائل القرن العشرين. (المترجم)

13جزيرة يونانية شهيرة. (المترجم)

- نرغب في تمجيد الحرب، التي تمنح العالم صحته، والروح الحربية والوطنية، واليد المدمرة للفوضى والأفكار الرائعة حول القتل وازدراء المرأة.
- نرغب في تدمير المتاحف والمكتبات لنقاتل ضد تلك الأخلاقية والنسوية وكل أشكال الحقارة الانتهازية والنفعية.

لن نستطيع أن نجد بالفعل فارقًا أكبر بين البشر أكثر من هؤلاء الذين أحبوا الحياة وهؤلاء الذين أحبوا الموت. هذا الحب للموت مكتسب بشكل كامل. إن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يستطيع الشعور بالملل، وهو الكائن الوحيد أيضًا الذي يستطيع أن يحب الموت، بينما الإنسان العاجز (ولا أقصد هنا العجز الجنسي) لا يستطيع أن يخلق الحياة، بل فقط أن يدمرها هي وكل تجلياتها. حب الموت هو الانحراف الكامل في طبيعة الحياة. يوجد البعض ممن هم بالحقيقية نيكروفيليين، وهم يحيون الحرب ويدعمونها، حتى وإن كانوا غير واعين بدوافعهم بشكل كامل، ويمنطقون رغباتهم كأنهم يخدمون الحياة والشرف أو الحرية. ربما تشكل تلك الطائفة الأقلية، ولكن يوجد الكثيرون ممن لم يختاروا بين الحياة والموت وألهوا أنفسهم لتفادي ذلك الاختيار. هم لا يحيون الدمار ولكنهم أيضًا لا يحيون الحياة. إنهم يفتقدون بهجة الحياة الضرورية لمعارضة الحرب بقوة.

قال جوته ذات يوم إن الفارق العميق بين الفترات التاريخية المختلفة هو الفارق بين الإيمان وعدمه، وأضاف أن كل الفترات التي ساد فيها الإيمان كانت أزمان نهضة وإشراق وإثمار، بينما تختفي تلك الفترات التي يسيطر فيها عدم الإيمان، فلا أحد يريد أن يُكرِّس نفسه لشيء غير مثمر. إن الإيمان الذي يتكلم عنه جوته هو المغروس بقوة في حب الحياة. إن الحضارات التي تخلق الظروف الملائمة لحب الحياة هي ثقافات الإيمان، وتلك التي لا تستطيع أن تخلق ذلك الحب لا يمكنها أن تخلق الإيمان.

إن راسل رجل إيمان، ففي قراءة كتبه ومشاهدة أنشطته المناصرة للسلام يبدو لي حبه للحياة العامل الرئيسي المكون لشخصيته. لقد حذَّر العالم من هلاك وشيك تمامًا كما فعل الأنبياء، لأنه أحب الحياة بكل أشكالها وتجلياتها. إنه - مرة أخرى - كالأنبياء لا يؤمن بالجبرية مدعيًا أن المستقبل التاريخي قد تحدد بالفعل، ولكنه ذلك الرجل الذي يطرح البدائل، والذي يرى أن ما هو عبارة عن بدائل معينة يمكن التحقق منها. إن بديلنا يكمن في تلك المساحة بين نهاية سباق التسلح النووي والدمار. سواء فاز صوت هذا النبي وغطى على أصوات الهلاك والسأم أم لا، فإن هذا يعتمد على درجة حيوية العالم وخاصة ما حفظته الأجيال الشابة. إن هلكنا فلن يسعنا القول بأنه لم يتم تحذيرنا!

النزعة الإنسانية (فلسفة الإنسان العالمية)

تعد نهضة النزعة الإنسانية واحدة من أهم التطورات الأخاذة في العقد الحالي، خاصة في أوروبا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية. إن العلاقة بين النزعة الإنسانية والنهضة متبادلة: فالبعض يتحدث عن إنسانية النهضة، ولكن في الحقيقة ثمة تعريف مُحدَّد للنزعة الإنسانية من وجهة نظري. إنه تعريف ضيق يشير إلى النزعة الإنسانية كما أشارت له حركات القرن الخامس والسادس عشر المنادية بالعودة إلى التعليم الكلاسيكي ودراسة اللغات اليونانية والعبرية واللاتينية. يختلف قليلا عن هذا تعريف النزعة الإنسانية بأنها فلسفة عالمية شاملة للإنسان والتي شكَّل عصر النهضة إحدى ذراها، ولكن لديها أصول تعود إلى 2500 عامًا بداية من الأنبياء في الغرب وتعاليم بوذا في الشرق.

ما هي المبادئ الأساسية للنزعة الإنسانية؟ من الممكن توصيف الفلسفة الإنسانية بالشكل الآتي:

أولا: الإيمان بوحدة الجنس البشري، وأنه لا يوجد شيء إنساني غير موجود بداخل كل فرد منا.

ثانيًا: التشديد على كرامة الإنسان.

ثالثًا: التشديد على إمكانية الإنسان أن يطور نفسه باتجاه الكمال.

رابعًا: التشديد على العقلانية، والموضوعية والسلام.

لقد شكَّل الفيلسوف البولندي المعاصر آدم شاف[14] توصيفًا آخرًا في كتابه: "الماركسية والفرد الإنساني". لقد أطلق على النزعة الإنسانية: "نظام من التأملات عن الإنسان يراه في أعلى مرتبة، يهتم بخلق الظروف المثلى للسعادة بشكل عملي".

سأحاول أن أوضح كيف يمكن التعبير عن النزعة الإنسانية في فترات ثقافية متنوعة.

الإنسانية البوذية:

يمكن وصف البوذية الكلاسيكية بما نطلق عليه اليوم الفلسفة الوجودية، بداية من تحليل الظرف الحقيقي للوجود الإنساني وصولا لفكرة أن الوجود الإنساني يتضمن المعاناة بشكل حتمي، وأنه ثمة طريق واحد للتخلص من هذه المعاناة يتمثل في إيقاف الجشع. نستطيع أن نرى مفهوم الإنسان بشكل عام في هذه الرؤية وأيضًا نموذجًا للطبيعة الإنسانية، في نفس الوقت محاولة للإجابة عما رأته البوذية المشكلة الحقيقية للإنسان، والتي أسمتها "معاناة الإنسان".

14فيلسوف بولندي مولود عام 1913. درس الاقتصاد والفلسفة ثم تخصص في الأبستمولوجيا. يعد أحد المنظرين لحزب الاتحاد العمالي ببولندا.

يمكننا أن نجد في العهد القديم فرعًا آخر للنزعة الإنسانية. نقرأ في سفر أشعياء 19: 23 - 25: "في ذلك اليوم تكون سكة من مصر إلى أشور، فيجيء الأشوريون إلى مصر والمصريون إلى أشور، ويعبد المصريون مع الأشوريين. في ذلك اليوم يكون إسرائيل ثلثًا لمصر ولأشور، بركة في الأرض. بها يبارك رب الجنود قائلا: مبارك شعبي مصر، وعمل يدي أشور، وميراثي إسرائيل". يعد هذا مثالا لروح العالمية ومفهوم الإنسان كمركز للفكر[15]. نستطيع أن نرى هذا الفكر الإنساني في العهد القديم في محبة الجار - والتي نعرف صعوبتها جيدًا - وأيضًا في مفهوم تجاوز ذلك المستوى وهو محبة الغريب؛ وهو الشخص الذي لا تربطه بنا روابط الدم أو أية روابط أخرى مألوفة. يقول العهد القديم: "ولا تضايق الغريب فإنكم عارفون نفس الغريب، لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر" سفر الخروج 23: 9. ما تتضمنه تلك الآية هو أن الإنسان يستطيع أن يتفهم إنسانًا آخرًا بسبب أنه اختبر نفس التجربة الإنسانية التي اختبرها الآخر. ما تتضمنه بالتالي الآية علاوة على ما سبق هو أننا نتشارك في نفس التجربة الإنسانية، وهذا ما يُمكِّننا من فهم بعضنا الآخر.

---

15 بالرغم من إنسانية كثير من أقوال أنبياء اليهود المتأخرين، إلا أن وصف الكتابات النبوية بوضع الإنسان في المركز ليس دقيقًا، فقد ظل الرب في المركز دائمًا. (المترجم)

استمرت نفس الفكرة في الفكر المسيحي في وصية: "أحبوا أعداءكم" متى5: 44. إنه تعليق غريب بصدد مجتمع يؤمن أكثر من 95% من أفراده بالله في الوقت الذي تأتي فيه أغلب التقارير حول حرب فيتنام بعدد القتلى الفيتناميين الذين نقتلهم كل يوم! إنه التناقض في الثقافة المسيحية والتي أصبح فيها الدين مجرد أيدولوجية. إن فكرة المسيح نفسه في الديانة المسيحية تعبر عن الروح الإنسانية. لقد قال نيكولاس الكوزي أحد أعظم اللاهوتيين بعصر النهضة ذات مرة: "إن إنسانية المسيح تربط الناس معًا وإنها أعظم دليل على وحدة الإنسانية". علينا إذن أن نؤكد مرة أخرى في كل الأفكار الإنسانية على "الوحدة الداخلية للجنس البشري".

هناك أيضًا الإنسانية اليونانية التي نستطيع أن نجد فيها أعمال سوفوكليس مثل أنتيجونا، وهي إحدى أعظم المسرحيات الإنسانية. والتي تعبر فيها أنتيجونا عن النزعة الإنسانية، ويعبر فيها سيرون عن القوانين اللا إنسانية التي يصنعها الإنسان.

كتب ذات مرة المفكر اللاتيني الإنساني العظيم شيشرون[16]: "يجب علينا أن ننظر إلى الكون بأكمله كحكومة جامعة، أعضاءها من الآلهة والبشر". إن فكرة شيشرون هنا عن

16 شيشرون: الكاتب الروماني وخطيب روما المميز، ولد سنة 106 ق.م، صاحب إنتاج ضخم يعتبر نموذجا مرجعيا للتعبير اللاتيني الكلاسيكي، وصلنا لحسن الحظ جانب كبير منه. (المترجم)

الحكومة الجامعة تختلف قليلا عن فكرة الأمم المتحدة. إنها أكثر أصالة. إنها أكثر من مجرد مفهوم بعيد المنال، مصاغ بطريقة جمالية.

لقد قادت الأسماء العظيمة في إنسانية عصر النهضة: إيرازموس[17]، بيكو ديلا ميراندولا[18]، وغيرهم. الإنسانية إلى ذلك المفهوم الذي يؤكد على جوهر الإنسان بكليته؛ الإنسان الكامل والذي يتوجب عليه أن يتجلى بكامله ليكشف عن كل إمكاناته المحتملة. مع تلك القوة الدافعة للتفكير التنويري عن إمكانات الإنسان بدأ نوع جديد من الفكر الإنساني. إنه ليس غريبًا عن النزعة المبكرة، ولكنه يؤكد على عامل آخر بقوة. إن التأكيد على العقلانية وقبل كل شيء السلام، كان له أهمية بالنسبة لمفكري عصر النهضة الإنسانيين. لقد تعرفوا على التعصب الموجود بين الطرفين البروتستانتي والكاثوليكي في ذلك الوقت وفهموا أنه يستند إلى المشاعر اللا عقلانية. لقد حاولوا منع الحرب ولكنهم فشلوا. اندلعت حرب الثلاثين عامًا والتي شكلت

17 إيرازموس عاش هو فيلسوف هولندي، من رواد الحركة الإنسانية في أوروبا، ومن الخدمات التي أسداها للتعليم علاوة على نشره الكتب التربوية، اتصاله المباشر بالطلبة والمراسلات الشخصية، وقد تناول في مؤلفاته معظم مظاهر التربية وقضاياها المهمة مثل الطريقة والمحتوى وغيرها من القضايا. (المترجم)

18 جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا كان فيلسوفا، لاهوتيا، ومفكرا إيطاليا، ثالث أبناء عائلة أرستقراطية. قام بدراسة وتلخيص أفكار أهم المدارس الفلسفية المعروفة في زمانه، خصوصا الأفلاطونية الحديثة، مدرسة المشائين، الفلسفة المدرسية والكابال المسيحية. (المترجم)

كارثة روحية لا تقل عن نظيرتها المادية في أوروبا، رغم جهود الإنسانيين الذين حاولوا منعها بخلق إطار من الموضوعية.

بقدر اهتمامي بفلسفة عصر النهضة، من القرن السابع عشر إلى التاسع عشر، فإني أحتاج إلى الإشارة فقط لبعض الأسماء القليلة: سبينوزا – لوك – ليسنج – فرويد – ماركس. ولكن أحد أهم الإنسانيين في أوروبا بلا جدال هو جوته. لقد كتب في 1814: "إن الأمة الألمانية لا تشكل شيئًا، ولكن الفردية الألمانية تشكل شيئًا ما، ولكنهم الآن يتخيلون أن العكس هو الصحيح. يجب على الألمان أن يتفرقوا في أنحاء العالم كاليهود من أجل نفع الإنسانية بكل الخير الذي يحملوه". قد يتم اعتبار هذا التصريح إجراميًا ولا معقول إن أعلِن اليوم في ألمانيا، وسيكون أكثر صدمة لبقية الأمم. دعوني أقتبس مرة أخرى من جوته مما كتبه في 1814 في الوقت الذي وصفوا فيه حروب نابليون بحروب التحرير: "يجد شباننا أنه من الملائم أن يلتحقوا بالقوات المسلحة. إنه احتلال مغرٍ خاصة أنه يسمح للمرء أن يكتسب سمعة الوطني الكامل".

إن الجوهر الحقيقي للنزعة الإنسانية المتمحورة في فكرة أن الإنسانية كلها بداخل كل فرد منا موجودة في عصر النهضة وما قبله، ولكن جوته قد شكلها بطريقة أكثر وضوحًا حين قال: "إن الرجال لا يحملون فقط بداخلهم الاستقلالية، ولكن كل الإنسانية بكافة إمكاناتها". ترجم فرويد هذه الفكرة الإنسانية

لجوته في الممارسة العملية للتحليل النفسي والذي يعد محاولة لفهم طبقات اللا وعي في إنسان آخر، مفترضًا بشكل مسبق أن ما نجده في لا وعي إنسان آخر يحيا بداخلنا نحن أيضًا. إن لم نكن جميعنا نحمل الجنون والشر والخير وكل الاحتماليات الأخرى بداخلنا. فكيف يستطيع أي إنسان فهم اللا وعي، والمحتوى غير المعتاد أو غير الظاهر في عقل الإنسان؟ (بالطبع إني أتكلم هنا عن تفهمه وليس تأويله).

يعد ماركس واحدًا من أهم إنسانيي القرن الماضي. في كتابه مخطوطات فلسفية كتب: "إن الكائن لا يعتبر نفسه مستقلًا إن لم يكن سيدًا لنفسه، ولن يكون سيدًا لنفسه إلا عندما يدين بوجوده لنفسه. إن الرجل الذي يعيش معتمدًا على كائن آخر لا يمكن أن يكون مستقلا".

سيصبح الإنسان مستقلا فقط إن سمح لوجوده المتنوع بكافة تجلياته بالظهور، وهذا هو الإنسان الكامل. هنا يقترب ماركس كثيرًا من جوته ومن فلاسفة عصر النهضة، ولكن ربما ما يشدد عليه ماركس هنا أكثر من الآخرين هو الاستقلالية، لا أن يتوقف وجود الإنسان على آخر، أو باستخدام تعبير آخر كثيرًا ما يستخدمه ماركس "نشاط النفس". ليس المقصود هنا بالنشاط فعل شيء ما، أو أن تكون مشغولة ولكن المقصود عملية الإنتاجية الداخلية أو بمعنى آخر هو مفهوم قريب جدًا من المفاهيم التي صرَّح بها أرسطو

وإسبينوزا. لقد عبر ماركس عن هذا في موضع آخر في نفس الكتاب حين قال: "إن أحببت دون أن يستدعي حبك حبًّا في المقابل (إن لم تكن قادرًا بإظهار ذاتك كمحب لتجعل نفسك محبوبًا – "المؤلف") فإن حبك سوف يصبح ضعيفًا.. سوف يصبح بليَّة".

إن القارئ الذي لا يعلم أن هذا هو ماركس سوف يبحث عن المصادر البوذية أو مؤلفات عصر النهضة. للأسف أسيء التعبير عن ماركس في الولايات المتحدة بنفس القدر في الاتحاد السوفيتي، لذلك فإن هذا الجانب الإنساني في فلسفة ماركس غير معروف.

بشكل عام فإن النزعة الإنسانية ظهرت كرد فعل للتهديد الذي تعرض له الإنسان. نعيش اليوم في عصر يُعد فيه تهديد الوجود الإنساني خطيرًا للغاية. أولا وقبل كل شيء فإن ما يبدو واضحًا للعيان هو التهديد بشأن الوجود المادي للإنسان بالإعداد لحرب نووية على قدم وساق، ولكن ثمة تهديد آخر يختص بالوجود الروحي للإنسان. في المجتمع الصناعي – سواء كان رأسماليًّا أو شيوعيًّا فلا فرق على الإطلاق – يتشيأ الإنسان لحظة تلو الأخرى ويعمل على قتل ذاته كمستهلك أبدي. كل شيء يتحول في النهاية إلى سلعة استهلاكية. والإنسان يصبح منسلخًا عن ذاته ويصير لحظة تلو الأخرى رقمًا لا كينونة إن استخدمنا تعبير هايدجر. إنه يصبح لحظة تلو الأخرى ذلك

الإنسان المؤسسي: يتشيأ، بينما هو في خطر أن يفقد جوهر وجوده الإنساني وهو البقاء حيًّا حقيقة.

كرد فعل لهذه الأخطار نهضت في العشرة أعوام الأخيرة حركة إنسانية أو تنويرية إنسانية جديدة، تتطور بشكل أخاذ في كافة المعسكرات الأيدولوجية. نستطيع أن نرى حركة إنسانية جديدة في الكنيسة الكاثوليكية ساعد على نموها وتفعيلها يوحنا الثالث والعشرون[19]. ما علينا سوى أن نذكر أسماء كشاردان[20]، أو بعض اللاهوتيين الكاثوليك مثل كارل راهنر[21] لتوضيح مدى حيوية النزعة الإنسانية الجديدة. في الكنيسة البروتستانتية ثمة حركة مشابهة، ومن أهم ممثليها ألبرت شفايتزر، ويستطيع المرء أن يرى نفس النهضة في الجانب الماركسي مع أنها أقل شهرة. لكننا لن نجدها في الجانب السوفيتي، أو دعنا نقول إننا لن نعرف عنها شيئًا حتى إن

19بابا الكنيسة الكاثوليكية الحادي والستون بعد المائتان بين 28 أكتوبر1958 ، و3 يونيو1963 ، في أقصر بابويّة خلال القرن العشرين بعد يوحنا بولس الأول، غير أنها كانت حافلة سيّما بعد دعوة البابا لعقد المجمع الفاتيكاني الثاني؛ ويعتبر من البابوات الأكثر شعبيّة في التاريخ المعاصر. (المترجم)

20فيلسوف وكاهن يسوعي وجيولوجي فرنسي، والذي تخصص بعلم حفريات ما قبل التاريخ والحفريات وساهم باكتشاف إنسان بكين. (المترجم)

21واحد من أعظم اللاهوتيين الكاثوليكيين في القرن العشرين. ولد في مطلع القرن العشرين في ألمانيا ودخل الرهبنة اليسوعية سنة 1922 ورسم كاهنا سنة 1932. عمل مستشارًا أثناء انعقاد المجمع الفاتيكاني الثاني. وحتى وفاته في سنة 1984 كتب عددا لا يحصى من المقالات والكتب. (المترجم)

وجدت لأنه لن يُنشر عنها شيئًا هناك، ولكننا نستطيع رصد تلك الحركة بوضوح في البلاد الاشتراكية كيوغوسلافيا وبولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر. آدم شاف وجورج لوكاش[22] اثنان فقط من بين كثيرين أعطا نموذجًا لتنوير الحركة الإنسانية الجديدة في الماركسية بشرق أوروبا.

هناك بالطبع عديد من الفوارق بين مفاهيم الإنسانيين الكاثوليك والبروتستانت والماركسيين، وبين الماركسيين أنفسهم، وبالرغم من هذا هناك عوامل مشتركة مهمة. أولًا هناك تأكيد عام على أن ما يهم ليست فقط المبادئ الفكرية، بل الخبرات الإنسانية التي أنتجتها؛ هذا لأنه من الممكن أن تعبر نفس المبادئ الفكرية عن حقائق إنسانية مختلفة و متفرقة، أو أن تتغاضى عنها. من الممكن أيضا أن تُشكِّل مبادئ فكرية مختلفة تعبيرًا وانعكاسًا لنفس الحقائق الإنسانية. بتعبير آخر فإن أي مفهوم أو اعتقاد فلسفي أو سياسي أو لاهوتي يكون ذا معني فقط إن تطابق مع واقع التجربة الإنسانية للشخص الذي يُدلي به. إن مفاهيم الفكر في حد ذاتها فقيرة، وأي شخص يمكنه تعلمها كما يستطيع تعلم أي لغة أجنبية، والبعض يتعلمونها أفضل وآخرون أقل قليلا، لكنها في النهاية لا تساوي شيئًا سوى مجرد كلمات حتى يقوم بتطبيقها شخص ما في حياته اليومية. ففي

22فيلسوف وكاتب وناقد ووزير مجري ماركسي، ولد في بودابست عاصمة المجر. يعده معظم الدارسين مؤسس الماركسية الغربية في مقابل فلسفة الاتحاد السوفييتي. أسهم بعدة أفكار منها "التشيؤ" و"الوعي الطبقي" تندرج تحت النظرية والفلسفة الماركسية.

مثال الحرب والسلام مثلا سنلحظ سلوكه تجاه جاره. وأفعال الشخص أكثر صدقًا من كلماته وهي مغروسة في صميم الوجود الإنساني. يستطيع الإنسانيون من كافة المذاهب والمعسكرات الفكرية المختلفة أن يجدوا أشياء كثيرة مشتركة بينهم أكثر من الاختلافات. يستطيعون فهم بعضهم البعض بشكل جيد حتى وإن أعاد كل منهم فكرته إلى مرجعيته وإطاره المختلف.

أما عن العامل الثاني المشترك بين أصحاب النزعة الإنسانية الجديدة فهو الاهتمام بالإنسان، وكشف تجلياته بالكامل وإنقاذه ليس فقط من دماره المادي، ولكن من الموت الروحي الذي يهدده بواسطة المجتمع الصناعي.

ليس من الغريب إذن أن يقوم كل أصحاب النزعة الإنسانية اليوم بالتأكيد على السلام أولا، وتجنب التعصب ونتائجه الدينية والفكرية والتي تشكل استعدادًا جنونيًّا لتدمير الكون.

ولأن أصحاب النزعة الإنسانية لديهم العديد من أوجه الشبه فإن الحوار بينهم يتزايد، ولا نقصد بهذا الحوار حوارًا على شاكلة حوارات القرون الوسطى، ولكن حوارًا حقيقيًّا. على سبيل المثال فقد جمع مؤتمر بجامعة نوتردام الفرنسية ماركسيين من أوروبا ولاهوتيين بروتستانت وكاثوليك. عُقد أيضًا مؤتمرين في العام السابق (1965) في سالزبرج والنمسا. ستُعقد المزيد والمزيد من المؤتمرات، بدافع من روح الاتحاد المسكونية وزيادة نزوع الماركسيين بالدول الاشتراكية الصغيرة للاهتمام بمشاكل الإنسانية والإنسان.

من المؤكد وجود بعض الاختلافات بين النزعات الإنسانية الجديدة المختلفة. لدى الكنيسة البروتستانتية والكاثوليكية المعاصرة نفس التأكيد على الحب والتسامح والسلام، داخل إطار من التوحيد الذي يعلن أن هذه الأهداف والقيم مضمونة فقط بوجود الله. أما عن الوجودية الإنسانية والتي يمثلها بشكل واضح سارتر فإنها تؤكد على حرية الإنسان المطلقة، وتتضمن قدرًا كبيرًا من اليأس، دعني أقول بعض الأنانية البورجوازية (هذا بالطبع نقد سيختلف عليه الكثيرون). لكن لا شك أن وجودية سارتر تعد إحدى معالم الفلسفة الإنسانية اليوم.

أما عن الإنسانية الاشتراكية فهي تتعرض لعاملين أحب أن أشير إليهما. الأول تم التعبير عنه بوضوح من قبل البروفيسور شاف في كتابه الشهير. لقد ركز على العناصر التالية في الاشتراكية الإنسانية: الأول أن صورتها عن الإنسان هي صورة الاستقلالية، دون مرجعية أو خلفية توحيدية. إنها الإنسانية المقاتلة، أي الإنسانية السياسية. تفاؤلها ليس بناءً علي إيمان أو رجاء بل قناعة. (بالطبع يستطيع المرء تَفهُّم هذا، ففي بلد كبولندا حيث تدور المعركة الرئيسية بين الماركسيين والكنيسة الكاثوليكية فإن مؤلف بولندي سوف يشدد على اغترابه عن الكنيسة). حقيقة أخرى طبقًا لشاف هي حب الإنسان لجاره وإنكار الأنانية والشعور بالسعادة في الكفاح من أجل سعادة الآخرين. نستطيع هنا أن نجد مسحة خفيفة من تفكير بورجوازيي القرن التاسع عشر التي تذكرنا بمبدأ (الفائدة الكبرى

لأكبر عدد ممكن) ولكنه هنا ينبذ الأنانية أكثر عمقًا، في الحقيقة أكثر اختلافًا من الفكر البورجوازي في القرون القليلة الماضية (بالطبع فإن القضاء على الظروف الاجتماعية للتعاسة العامة بشكل عملي هو الهدف الرئيسي للماركسية الإنسانية).

لكن السؤال الحاسم هنا ماذا تعني عبارة القتال من أجل سعادة الآخرين؟ هذا هو المظهر الثاني الذي أود مناقشته. ما هي السعادة؟ هل يمكن تعريفها بشكل موضوعي؟ أهي تحقيق كل رغبات الإنسان؟ إذن فالشخص الماذوخي يكون سعيدًا عندما يُعتدى عليه بينما يكون السادي سعيدًا عندما يَعتدي على أحد، ومدمن المخدرات يكون سعيدًا عندما يجد المخدر. إذا أردنا أن نُعرِّف السعادة بمعناها الذاتي فهي السماح لكل شخص أن ينال ما يريده. لدنيا نظرية: "دعه يعمل" بمعناه الحرفي في مجال الأخلاق، وسيصبح هذا بلا معنى على الإطلاق لعدم وجود تعريف للسعادة في إطار موضوعي، وهذا النوع من السعادة يمكن أن يكون الأسوأ أو الأفضل!

هل يمكن تعريف الهدف من الحياة باصطلاحات صالحة موضوعيًّا؟ عندما نقوم بفعل هذا ألا ترانا نعود إلى الديانة التقليدية أو النظام الستاليني بمعنى أنه إما الكنيسة أو الدولة تقوم بتحديد ما هو الجميل والصالح وما هي الأهداف التي يجب على الإنسان أن يقاتل من أجلها؟ بالتالي سنواجه العديد من المشكلات الخطيرة. هل ثمة طريقة ما نستطيع من خلالها مصالحة هذا التناقض الهائل بشكل واضح لنصل إلى قيم

موضوعية صالحة دون العودة إلى تحكُّم الدولة أو الكنيسة بأنظمة القيم المفروضة على الإنسان؟ هذه الأسئلة شائعة عند معظم الإنسانيين بغض النظر عن اتفاقهم أو اختلافهم مع شاف.

يجب علينا أن نقبل أنه لا مكان للدوجما أو القوة، وأن الأفكار والقيم ليست قائمة على فكرة الإيمان بالله، وفي نفس الوقت لا قوة تستطيع منع الناس من إشباع رغباتهم في هذا المفهوم غير التوحيدي للنزعة الإنسانية، بما في ذلك المخدرات نفسها أو أي نوع من النشاط الجنسي طالما أنهم لا يقومون بإيذاء الآخرين (لا أقصد الجنس على وجه الخصوص والذي لا يتسبب في ضرر كبير). يبدو لي، أن المشكلة ليست منع وتحريم إشباع الرغبات، ولكنها تكمن في تحفيز الإنسان لتهذيب رغباته الإنسانية الحقة التي تعمل على تطويره وتنشيطه وجعله كائنًا حيًّا بحق. نستطيع صنع التقدم فقط بتهذيب الرغبات، ولا نستطيع التقدم أبدًا من خلال نظام إشباع الرغبات التي توجد بالفعل لكنها لا تعمل.

كيف يمكن تحفيز الرغبات؟ في اعتقادي ثمة طريقتان: الأولى أن نتناول تقاليدنا الإنسانية بجدية، فحتى اليوم لا نتناولها بجدية على الإطلاق. معظم ما نقوله عن تراثنا ينحصر فقط في مجال الوعظ والأيدولوجيا، لكنه لا يعكس حقائق الحياة. إن المشكلة هنا تكمن في السؤال عن تأثير ذلك التقليد

الإنساني الذي يعود إلى أفضل سنين جنسنا البشري في الألفين والخمسمائة عام الماضية، وهل يشكل تحديًا لطريقة ممارستنا للحياة اليوم؟ الطريقة لثانية تتلخص في أنه لكوني اشتراكيًا فإني أعتقد أن الرغبات الإنسانية يمكن تحفيزها فقط بممارسة اجتماعية مختلفة أو ترتيب آخر أو بواسطة خلق طابع آخر للمجتمع.

السؤال التالي إذن سيدور حول كيفية تأسيسنا لشرعية أهداف إنسانية معينة لقيم إنسانية معينة إن كانت تلك القيم لا تقوم على فكرة الله أو الرؤى أو التقليد البسيط[23]. إني أعتقد أنه يمكن أن يتم ذلك بفحص ظروف الوجود الإنساني، وتحليل التناقض الحقيقي في الوجود الإنساني وبتحليلنا لكيفية حل تلك المشكلات بالشكل الأمثل. لقد قامت البوذية بتحقيق تلك المهمة بدرجة ما من الفعالية منذ 2500 عام مضت. نستطيع الاتفاق أو الاختلاف مع ما وصلت إليه البوذية، ولكن على أية حال فإن معظم أفكار البوذية يُساء فهمها تلك الأيام، لكن بالتأكيد شكلت البوذية محاولة حقيقية غير أسطورية تدور في إطار عقلاني لتفهُّم الوجود الإنساني ورؤية مشكلاته ومحاولة إيجاد الإجابة. ربما توجد

23في هذا الجزء يلخص فروم أهم ملامح مشروعه الإنساني الذي يحاول بناء قيم مطلقة بعيدة عن مفهوم الدين أو الله، وقائمة على العقل والمنطق والطبيعة البشرية. أما عن نجاحه في ذلك أم لا فهو أمر متروك للقارئ. (المترجم)

إجابات أخرى أفضل، ولكن تلك كانت المرة الأولى التي يقوم فيها الإنسان بتحليل عقلاني علمي وموضوعي.

بشكل أكثر تحديدًا أعتقد أن الإجابات والقيم لتلك النوعية من النزعات الإنسانية سوف تسير في الاتجاه الآتي: هناك قيمة عليا للشخصية المنتجة أو التي تتمتع بالنشاط الذاتي حسب منطق إسبينوزا وجوته أو ماركس. هذا يناقض قتل الذات وتلك المرحلة الأزلية من الطفولة المتواكلة، وهي معدل بناء الشخصية في المجتمع الصناعي اليوم. بالإضافة لذلك سيعمل الإنسان على تطوير قدرته على الحب والتعقل. نستطيع أن نجد قيمة أخرى مطلقة وهي قدرة الإنسان على السمو، وهي عبارة غالبًا ما تُستخدم في المناقشات اللاهوتية. يقولون إن الإنسان يجب أن يذهب أبعد من ذاته ليصبح إنسانًا كاملا، وهذا الذي يعبر عنه بما وراء ذاته عادة ما يُعرَّف بـ(الله). لكن إن تكلم الإنسان فيما يتعلق بالتجربة الإنسانية، فإن مفهوم الله ليس ضروريًا، والسؤال هنا هل يستطيع الإنسان التخلي عن أناه الخاصة؟ هل يستطيع ترك سجن وجوده المنعزل؟ هل يستطيع أن يخلي ذاته؟ هل يستطيع أن يكون منفتحًا على العالم؟ كما عبرت الصوفية عن ذلك هل يمكن أن يفرغ ذاته ليصبح ممتلئًا؟ هل يستطيع الافتقار لأجل أن يصبح غنيًا؟ أم نستخدم التعبير الذي عادة ما يستخدمه ماركس "ما يهم هو الإنسان نفسه وليس ما يملكه أو يستعمله". في أكثر الأشكال الفكرية ثورية سوف نصل إلى ما يمكن أن يسمى "التصوف

التوحيدي" وسوف نجده حقيقة في بوذية الزن، وأيضًا عند عدد كبير من فلاسفة الغرب الذين لا يعرفون شيئًا عنها. يمكن للمرء أن يصف بوذية الزن كشكل من أشكال الوحدانية مع العالم ولكنها لا تقوم على فكرة الإيمان بالله في شكل مفهوم واضح، ولكن بغض النظر عن هذا فإنها غير بعيدة جدًّا عن أفكار المتصوفة المسيحية واليهود والمسلمين الذين عبروا عن هذه التجربة بمفاهيم وكلمات أخرى.

ربما يجب أن نضيف شيئًا آخر بخصوص ذلك الأمر: أي نزعة إنسانية يجب أن يكون بها ترتيبًا هرميًّا صارمًا للقيم، بغير هذا لن يعود لأي شيء معنى. إنها ليست هرمية أيدولوجية، ولكنها هرمية حقيقية. إن رغب أحد في أن يصبح عازفًا للبيانو وحاول أن يقوم بذلك بالتدريب نصف ساعة كل أسبوع، فإنه بالتأكيد أحمق، وإن رغب أحد في الوصول لقيم الإنسانية دون إعطائها الأولوية المطلقة فوق كل القيم – أتكلم هنا بشكل نسبي - فإنه يقوم فقط بخداع نفسه. ربما لا يكون أحمق في عُرف ذلك العالم، ولكن إن لم يختر الإنسان بين الله وقيصر (هنا أتكلم بلغة لاهوتية) فمن المحتمل أن يبيع نفسه كلية إلى قيصر، وبالتأكيد لن يختار الله ولا تلك القيم في ظل نظام إنساني متطور.

ادعى نيتشه في القرن التاسع عشر بأن الله قد مات، واليوم فإن عددًا من اللاهوتيين البروتستانت يعلنون نفس

الفكرة، وبالنسبة لمعظم الناس قد يكون هذا صحيحًا، ولكن المشكلة اليوم ليست عما إن كان الله قد مات أم لا، ولكنها عما إن كان الإنسان نفسه قد مات. أقصد هنا الموت الروحي مع أنه مهدد أيضًا بالموت المادي. إن الإنسان بغض النظر عن كل ذلك يصبح أكثر آلية يومًا فيومًا، وسوف يجعله هذا خاويًا في النهاية بشكل كامل دون أي حيوية. تصر النزعة الإنسانية الجديدة باختلاف أشكالها على أنه على الإنسان ألا يموت، وبالطبع فإن البروتستانت والكاثوليك مهتمين بأن الله لا يجب أن يموت، ولكنهم متحدين مع كل الإنسانيين الآخرين في جهودهم الأولية لمنع موت الإنسان.

ليس من المهم فقط أن نقاوم الشر، وبالفعل هناك العديد من الشرور التي يجد كل إنسان الفرصة لمواجهتها اليوم، ولكن دعنا نتخيل للحظة بأنه لا توجد مشكلة عنصرية أو حربًا في فيتنام. ماذا سنفعل بحياتنا في هذه اللحظة؟ أعتقد أنه من المهم جدًّا أن نكون واعين أن مقاومة الشر وحدها ليست الشكل الوحيد للنشاط الإنساني، وأعتقد أنه من المهم جدًّا للأجيال الفتية أن تفكر أين تستطيع أن تجد إطارًا من المرجعية، وأين تستطيع أن تجد تكريسًا وتوجهًا موضوعيًّا تمامًا، لا لذلك العالم البورجوازي، ولا للدين المتمحور حول الحقيقة المطلقة والمنظمات التي تدعمها، لكن فقط لاختيار القيم التي تستطيع أن تؤدي إلى حيوية أكبر بالمعنى الإنساني. لا يجب أن نخشى مواجهة المشاكل الروحية لوجودنا الإنساني.

تطبيق التحليل النفسي الإنساني على الماركسية

إن الماركسية فلسفة إنسانية، تهدف إلى الكشف الكامل عن كافة إمكانات الإنسان. ليس بالطبع الإنسان الذي نستدل عليه من أفكاره أو وعيه، ولكن من وجوده المادي والنفسي؛ الإنسان الحقيقي الذي لا يعيش في فراغ مجرد، لكن في سياق اجتماعي. ذلك الإنسان الذي عليه أن ينتج ليعيش. بشكل دقيق فإن الحقيقة هي أن اهتمام النظرية الماركسية ينصب على الإنسان بكامله بالإضافة لوعيه، وهو ما يميز مادية ماركس عن مثالية هيجل بالإضافة للجوانب الاقتصادية الميكانيكية في النظرية الماركسية. لعل أهم إنجازات ماركس هو أنه حرر الاقتصاد والفلسفة التي ترتبط بالإنسان من تعبيراتها المجردة والغريبة، وأنه طبَّق الفلسفة والاقتصاد على المجال الإنساني. انصب اهتمام ماركس الرئيسي حول الإنسان، وكان هدفه الرئيسي هو تحرير الإنسان من سيادة المصالح المادية؛ من السجن الذي بنته حوله أنظمته وأعماله. إن لم يفهم المرء من البداية هذا التوجه الرئيسي في فلسفة ماركس، فلن يكون قادرًا لا على فهم النظرية الماركسية ولا التزوير الذي لحق بها من الكثيرين الذين ادعوا ممارستها. بالرغم من أن عمل ماركس الرئيسي كان بعنوان "رأس المال"، فقد قصد بهذا العمل أن يكون خطوة في رحلة بحثه يتبعها بتاريخ الفلسفة.

لقد رأى ماركس أن دراسة رأس المال تُعد خطوة حاسمة من أجل تفهم وضع الإنسان العاجز في ظل المجتمع الصناعي. إنها خطوة واحدة في ذلك العمل العظيم، الذي إن كان قادرًا على كتابته فربما كان سيسميه: "الإنسان والمجتمع".

إن عمل ماركس الشاب مثله مثل ماركس مؤلف كتاب رأس المال مليء بالمفاهيم السيكولوجية. يعالج فيه مفاهيم مثل (جوهر الإنسان – الإنسان العاجز – الاغتراب – الوعي – الصراعات الوجدانية – الاستقلال) وهذه مجرد أمثلة لبعض أهم المفاهيم. بعكس أرسطو وإسبينوزا اللذان بنيا مفاهيمها الأخلاقية على نظام نفسي، فإن أعمال ماركس بالكاد لا تحوي أي نظرية نفسية. بعيدًا عن الملاحظات غير المنظمة التي تفرّق بين الدوافع الراسخة مثل (الجوع والجنس)، وبين الدوافع غير الراسخة التي تُنتَج اجتماعيًّا، فإننا بالكاد لا نستطيع أن نجد علمًا للنفس بشكل واضح في كتابات ماركس، ولا لخلفائه من نفس المنظور. إن سبب هذا الإخفاق لا يكمن في نقص الموهبة في تحليل الظواهر النفسية (إن الكتابات التي تحوي المراسلات غير المحذوفة بين ماركس وإنجلز تربنا قدرته على اختراق تحليل الدوافع اللا واعية التي تعد فخرًا لأي محلل نفسي موهوب)، بل سنجده في حقيقة أن طوال حياة ماركس لم يظهر أي علم نفسي ديناميكي يمكنه التعامل مع مشاكل الإنسان. لقد مات ماركس في 1883، وبدأ فرويد في نشر أعماله بعد أكثر من عشرة أعوام من وفاة ماركس.

بالرغم من أن فرويد قد شكَّل نوعًا من علم النفس كان لازمًا لإتمام تحليل ماركس، إلا أنه كان في حاجة إلى العديد من المراجعات. إن التحليل النفسي قبل كل شيء علم نفس حركي، يتعامل مع القوى النفسية المحفزة لسلوك الإنسان، وأفعاله ومشاعره وأفكاره. هذه القوى لا يمكن رؤيتها دائمًا، وإنما من الواجب استنتاجها من الظواهر التي تُلاحظ، وأن تُدرَس بكامل تناقضاتها وتجلياتها. يجب على علم النفس - حتى يكون مفيدًا للتفكير الماركسي - أن يلاحظ تطور القوى النفسية كعملية مستمرة من التفاعل بين احتياجات الإنسان من جهة وبين الواقع الاجتماعي والتاريخي الذي يساهم فيه من جهة أخرى. يجب أن يكون علمًا للنفس اجتماعيًّا إلى أقصى درجة، وأخيرًا يجب عليه أن يكون نقديًّا وخاصة لوعي الإنسان.

يحقق تحليل فرويد النفسي تلك الشروط الأساسية، وبالرغم من توافقه مع الفكر الماركسي، لم يفهمه الفرويديين أو الماركسيين على السواء. نستطيع أن نرى أسباب فشل الاتصال بين الطرفين واضحة في الجانبين على السواء. واصل الماركسيون تجاهلهم لعلم النفس، وطوَّر فرويد وتلاميذه أفكارهم في إطار من المادية الميكانيكية التي أثبتت أنها مُقيِّدة لتطور اكتشافات فرويد العظيمة ومتعارضة في الوقت نفسه مع المادية التاريخية ذاتها.

في نفس الوقت، بدأت تطورات جديدة في الحدوث؛ أهمها كان إعادة إحياء الماركسية الإنسانية. أصبح كثيرون من

الماركسيين الاشتراكيين خاصة في البلدان الاشتراكية الصغيرة، والبعض من الغرب أيضًا، على وعي بحقيقة حاجة النظرية الماركسية لنظرية نفسية للإنسان، وأصبحوا أيضًا على وعي بحقيقة أن الاشتراكية يجب عليها أن تُشبع احتياج الإنسان لنظام من التوجيه والتكريس، وأنها يجب أن تتعامل مع تلك الأسئلة عن ماهية الإنسان وما هو المعنى والهدف من حياته. إنه التأسيس الواضح للمعايير الأخلاقية، والتطورات الروحية القابعة خلف العبارات الفارغة من قبيل: "الأفضل هو ما يخدم الثورة" و"حالة العامل" و"الارتقاء التاريخي".. إلخ.

من ناحية أخرى فإن النقد الذي نشأ في معسكر التحليل النفسي ضد المادية الميكانيكية التي تميز فكر فرويد أدى إلى إعادة تقييم التحليل النفسي، خاصة نظرية الليبيدو. بسبب هذه التطورات في الفكر الماركسي والنفسي فقد حان الوقت للماركسيين الإنسانيين ليدركوا أن استخدام علم النفس بشكل حركي نقدي اجتماعي وموجه يحمل أهمية حاسمة من أجل تطور النظرية الماركسية والممارسة الاشتراكية على المستوى البعيد: ذلك لأن نظرية تتمركز حول الإنسان لا تستطيع أن تظل دون علمًا للنفس، وإلا ستفقد اتصالها مع الواقع الإنساني. في

الصفحات التالية أريد أن أشير إلى بعض المشاكل الرئيسية التي يجب أن يتناولها التحليل النفسي الإنساني[24].

المشكلة الأولى التي يجب أن نتعرض لها هي "الشخصية الاجتماعية" ومصفوفة الشخصية الشائعة عند مجموعة (أمة أو طبقة على سبيل المثال) والتي تحدد بشكل مؤثر أفعال وأفكار أعضائها. تشكل هذه المفهوم تطورًا خاصًّا في مفهوم الشخصية عند فرويد والتي يتمثل جوهرها في الطبيعة الديناميكية للشخصية. لقد رأى فرويد الشخصية كتجلٍ ثابت نسبيًّا للأنواع المختلفة من الصراعات الجنسية والتي توجهها طاقة نفسية لأهداف معينة وتنبع من مصادر مختلفة. عبر مفهومه عن الشخصية الفمية والشرجية والتناسلية قدَّم فرويد نموذجًا جديدًا للشخصية الإنسانية والتي فسَّرت السلوك كنتاج لصراعات وجدانية مميزة. افترض أن اتجاه وكثافة هذه الصراعات تشكلت كنتاج لتجارب الفترات المبكرة من الطفولة، والتي لها علاقة بأجزاء الجسم الحساسة للإثارة الجنسية (الفم – الشرج – الأعضاء التناسلية)، وبعيدًا عن

24لسوء الحظ حاول قليل جدًّا من المؤلفين أن يطبقوا التحليل النفسي على مشاكل الماركسية والاشتراكية، ويجب أن أشير بالأساس إلى كتاباتي منذ عام 1930، خاصة: عقيدة المسيح، و"علم الشخصية التحليلي وعلاقته بعلم النفس الاجتماعي" بكتاب: عقيدة المسيح، والهروب من الحرية، المجتمع السوي، ما وراء الأوهام الذي يتناول تحديدًا العلاقة بين نظريات ماركس وفرويد. من بين الكتابات الأخرى التي كُتبت من منطلق ماركسي تحليلي نفسي، تعد كتبات Wilhelm Reich الأهم، حتى وإن كانت لا تجمعها بآرائي سوى تشابهات ضئيلة.

العناصر الخِلقية فإن سلوك الوالدين مسئول بشكل رئيسي عن التطورات الجنسية.

إن مفهوم الشخصية الاجتماعية يشير إلى مصفوفة بناء الشخصية الشائعة عند مجموعة. من المفترض أن العامل الجوهري في تشكيل الشخصية الاجتماعية هو ممارسة الحياة كنتاج لنوعية الإنتاج والطبقة الاجتماعية. إن الشخصية الاجتماعية هي البناء الخاص للطاقة النفسية التي ينتجها أي مجتمع لفائدته الوظيفية. يجب على الشخص العادي أن يفعل ما هو مضطر أن يفعله بالطريقة التي تسمح للمجتمع أن يستخدم طاقاته لصالح أهدافه. تظهر طاقة الإنسان في العملية الاجتماعية بشكل جزئي كطاقة فيزيائية بسيطة، فالعمال يزرعون الأرض أو يبنون الطرق، وبشكل جزئي أيضًا تظهر في قوالب محددة من الطاقة النفسية. إن العضو في المجتمع البدائي الذي يعيش على الاعتداء وسرقة القبائل الأخرى، لا بد وأن تكون لديه شخصية المحارب مع شغف بالحرب والقتل والسرقة. أما أعضاء القبيلة الزراعية المسالمة فلا بد أن لديهم نزعة للتعاون، ولا بد أنهم أيضًا ضد العنف. إن المجتمع الإقطاعي يلعب دوره فقط عندما يكون لدى أعضائه ذلك السعي للخضوع للسلطة والاحترام والإعجاب برؤسائهم. تعمل الرأسمالية دورها فقط عندما يكون لدى الرجال تعطشًا للعمل وانضباط ودقة، وتكون رغبتهم الأساسية كسب المزيد والمزيد من المال، ويكون الربح مبدأهم الرئيسي في الحياة كنتاج للإنتاج

والتبادل. لقد احتاجت الرأسمالية في القرن التاسع عشر رجالا يستطيعون الادخار، وفي منتصف القرن العشرين احتاجت رجالا يملكون ذلك الشغف بتبذير المال والاستهلاك. إن الشخصية الاجتماعية تُشكِّل ذلك القالب الذي تتشكل بداخله الطاقة الإنسانية لفائدتها الخاصة كقوة منتجة في العملية الاجتماعية.

تُعزِّز الشخصية الاجتماعية بكافة وسائل التأثير المتاحة في المجتمع كالنظام التعليمي، والدين والأدب والأغاني والنكات والعادات، وأكثر من كل ذلك الطريقة التي ينشئ بها الآباء والأمهات أطفالهم. إن تلك الوسيلة الأخيرة مهمة للغاية لأن بناء شخصية الأفراد تتشكل ملامحها إلى حد كبير في الخمس أو الست أعوام الأولى في حياة الأبناء. لكن تأثير الوالدين لا يحدث بشكل فردي أو عن طريق الصدفة كما يعتقد التحليل النفسي الكلاسيكي. إن الوالدين يشكلان المحرك الرئيسي في المجتمع، ويختلفان بعضهما عن بعض بوسائل تعليمهما المختلفة بدرجة ما، وهذه الاختلافات عادة لا تقلل من تأثيرهما في خلق مصفوفة الشخصية الاجتماعية المرغوب فيها اجتماعيًّا.

تشكِّل مراجعة فرويد لنظرية الليبيدو[25] – والتي تعتبر بمثابة القواعد الأساسية لمفهومه عن الشخصية – شرطًا

25استخدم فرويد هذا المصطلح، وكان يهدف إلى إبراز قيمة الغرائز الطبيعية وجعلها المؤثر الأول في السلوك الإنساني خاصة الغريزة الجنسية. (المترجم)

لتشكيل مفهوم الشخصية الاجتماعية والتي تتشكل بممارسة الحياة اليومية في أي مجتمع. تتأصل نظرية الليبيدو في المفهوم الذي يرى الإنسان كآلة يشكل فيها الليبيدو مصدر الطاقة (بعيدًا عن نزعة الحماية الذاتية) يتم السيطرة عليها بواسطة مبدأ المتعة وتخفيف حدة الليبيدو الزائد عن الدرجة الطبيعية. على النقيض من ذلك المفهوم حاولت أن أعرض في كتابي الإنسان لأجل ذاته أن الكفاحات المختلفة للإنسان - والذي بالضرورة يعتبر كائنًا اجتماعيًّا- تتطور كنتاج لاحتياجه لاستيعاب علاقاته بالأشخاص والأشياء، وأن أشكال ذلك الاستيعاب والاندماج في المجتمع والتي تشكل عواطفه الأساسية تعتمد على البناء الاجتماعي الذي يوجد فيه. والإنسان في ذلك المفهوم نستطيع أن نراه مشخصًا في صراعاته الوجدانية نحو الأشياء والناس والطبيعة وفي احتياجه لربط نفسه بالعالم.

إن مفهوم الشخصية الاجتماعية يجيب عن عدة أسئلة مهمة لم تتعامل معها النظرية الماركسية على نحو كاف. فلماذا ينجح المجتمع في كسب كل الولاء اللازم من غالبية أفراده بالرغم من المعاناة التي يمرون بها تحت وطأة النظام حتى وإن أخبرهم المنطق أن هذا الولاء ضار لهم؟ ولماذا لا يكون سعيهم الأساسي كبشر هو التحرر من تلك الأوهام والتي يتم إنتاجها بكافة أنواع التأثيرات الأيدولوجية وغسل الأدمغة؟ لماذا لم يكن الوعي بموقفهم الطبقي ومميزات الاشتراكية فعالا كما اعتقد ماركس أنه يجب أن يكون؟ إن إجابات هذه الأسئلة

نستطيع أن نجدها في ظاهرة الشخصية الاجتماعية. بمجرد ما ينجح المجتمع في تشكيل القالب لبناء الشخصية للإنسان العادي باستبدال ما يحب الإنسان أن يفعله بما يجب أن يفعله، فهو يرضى بكل الظروف والأحوال التي يفرضها المجتمع عليه. وكما قالت إحدى شخصيات أبسن المسرحية ذات مرة: "لا حاجة لنا بالقول بأن الشخصية الاجتماعية والتي على سبيل المثال ترضى بالخضوع أنها شخصية عاجزة، فبغض النظر عن كونها عاجزة أم لا فإنها تخدم أغراض المجتمع والذي يطلب أعضاء خاضعين من أجل أداء وظائفه بشكل سليم".

إن مفهوم الشخصية الاجتماعية يساعدنا أيضًا في تفسير الصلة بين القواعد المادية للمجتمع وبين بنية الأيدولوجيا الهرمية فيه. لقد قدموا ماركس مرارًا وتكرارًا على أنه يعتقد أن بنية الأيدولوجيا الهرمية لا تشكل شيئًا، ولكنها فقط انعكاسات للقواعد الاقتصادية. هذا العرض لماركس ليس سليمًا، والحقيقة هي أن النظرية الماركسية لم تبين العلاقة بين القواعد والبنية الهرمية بشكل كاف. بينما تستطيع نظرية ديناميكية نفسية أن تشرح لنا كيف ينتج المجتمع الشخصية الاجتماعية، وكيف تميل الشخصية الاجتماعية إلى إنتاج أفكار وأيدولوجيات تتمسك بها تناسب المجتمع وتنشط به. بالرغم من ذلك فليست القواعد الاقتصادية هي الوحيدة التي تنتج الشخصية الاجتماعية، والتي بدورها تنتج أفكارًا معينة. إن

الأفكار بمجرد خلقها تؤثر على الشخصية الاجتماعية، وبشكل غير مباشر على البنية الهرمية الاقتصادية للمجتمع. إن ما أحاول التشديد عليه هنا هو أن الشخصية الاجتماعية هي الوسيط بين البنية الاقتصادية الاجتماعية وبين الأفكار والمثل السائدة في المجتمع. إنها المرحلة الوسطى في كل الاتجاهات، فمن القواعد الاقتصادية للأفكار، ومن الأفكار للقواعد الاجتماعية. يبين الشكل هذا المفهوم:

القواعد الاقتصادية

↑

الشخصية الاجتماعية

↑

الأفكار والمثل

يستطيع مفهوم الشخصية الاجتماعية أن يشرح لنا كيف يمكن استخدام الطاقة الإنسانية مثلها مثل أي مادة خام من أجل احتياجات وأهداف المجتمع. إن الإنسان هو بالحقيقة أشد قوى الطبيعة مرونة. يمكن إعداده لخدمة أي هدف، يمكن جعله يكره أو يتعاون أو يخضع أو يستمتع بالألم أو السعادة.

في الوقت الذي نقول فيه إن كل ما سبق حقيقي إلا أنه في نفس الوقت يستطيع الإنسان حل مشكلة وجوده فقط

بالكشف الكامل عن كل قواه الإنسانية. كلما يعمل المجتمع على جعل الإنسان أكثر عجزًا، كلما يزداد الإنسان مرضًا حتى وإن كان راضيًا عن وعي بنصيبه، لكنه غير راض في لا وعيه. يدفعه عدم الرضا في النهاية إلى تغيير الأشكال الاجتماعية التي تعيق وجوده. إن لم يستطع فعل هذا فإن هذا النوع من المجتمعات الباعثة على المرض سوف تختفي. إن التغيير الاجتماعي والثورة لا تسببهما فقط قوى الإنتاج الجديدة والتي تتصارع مع الأشكال القديمة من المنظمات الاجتماعية، ولكن أيضًا بالصراع بين الظروف الاجتماعية اللا إنسانية وبين احتياجات الإنسان الراسخة، وتاريخ صراع الإنسان من أجل الحرية أكبر دليل واضح على هذا المبدأ.

إن مفهوم الشخصية الاجتماعية ليس مفهومًا نظريًا يقود فقط إلى بعض التأملات، ولكنه مفيد ومهم للدراسات التجريبية التي تهدف لاكتشاف مجال الأنواع المختلفة من الشخصية الاجتماعية في أي مجتمع أو طبقة اجتماعية. بافتراض أن شخص ما استطاع تعريف شخصية الفلاح بأنها شخصية فردانية تحب الادخار، عنيدة لا ترضى كثيرًا بالتعاون، ضعيفة الإحساس بالوقت وتنقصها دقة المواعيد، فإننا سنجد أن تناذر هذه السمات لا يشكل فقط خلاصة المميزات المختلفة للشخصية، لكنها تمثل البنية المشحونة بالطاقة. إن هذا البناء سوف يقاوم أي محاولات لتغييره مقاومة شديدة سواء بالعنف أو بالعرقلة الصامتة للتغيير،

وحتى المميزات الاقتصادية لن تنتج أي تأثيرات بسهولة. إن هذا التناذر يدين بوجوده للطابع العام للإنتاج والذي هو ميزة لحياة الفلاح لآلاف من الأعوام. ينطبق هذا أيضًا على طبقة وسطى تنحدر سواء أتت بهتلر للسلطة أو بطبقة الفقراء البيض في الولايات المتحدة. إن نقص أي نوع من أنواع التحفيز الثقافي الإيجابي، والاستياء تجاه ذلك الوضع والذي تُرك بسبب تيارات المجتمع التي تتحرك للأمام، وكراهية أولئك الأشخاص الذين قاموا بتدمير تلك المثل التي أعطت المثال والقدوة فيما مضى: كل هذا خلق شخصية متناذرة جُبلت على حب الموت (النيكروفيليا)، وعلى الرسوخ الشديد والخبيث للدم والأرض، وعلى النرجسية الشديدة للجماعات، وفي النهاية تم التعبير عن ذلك بالقومية والعنصرية الشديدة[26]. كمثال أخير: إن بناء الشخصية للعامل الصناعي يشمل الدقة في المواعيد والانضباط والقدرة على العمل ضمن مجموعة: هذا التناذر في السمات هو الذي شكل الحد الأدنى للوظائف الفعالة في العامل الصناعي. أما عن الاختلافات الأخرى كالتبعية والاستقلالية، الاهتمام واللا مبالاة، النشاط والسلبية، فيتم تجاهلها جميعًا في تلك المرحلة مع أنها تحمل أهمية قصوى في بناء شخصية العامل في الوقت الحالي وفي المستقبل.

26في كتاب: جوهر الإنسان عرض لهذه الفكرة بالتفصيل. (المترجم)

أما عن أهم تطبيق لمفهوم الشخصية الاجتماعية فهو تمييز الشخصية الاجتماعية المستقبلية في مجتمع اشتراكي كما تصوره كارل ماركس عن الشخصية الاجتماعية في القرن التاسع عشر الرأسمالي، برغبتها الرئيسية في التملك والثروة، وتمييزها عن الشخصية الاجتماعية في القرن العشرين (سواء كان رأسماليًّا أو شيوعيًّا) والتي أصبحت أكثر ملاءمة للمجتمعات الصناعية الكبرى، فهي الآن شخصية التدمير الذاتي.

إن الشخصية الاستهلاكية لا تهدف إلى امتلاك الأشياء، ولكنها تهدف إلى الاستهلاك أكثر فأكثر لتعويض خوائها الداخلي، وسلبيتها ووحدتها وأيضًا قلقها. في ظل مجتمع يتميز بمؤسسات عملاقة وبيروقراطيات صناعية وحكومية وعمالية كبرى، فإن الفرد الذي ليس لديه شكل من أشكال التحكم في ظروف عمله يشعر بالوهن والوحدة والملل والقلق أيضًا. في نفس الوقت فإن الحاجة إلى الربح في المؤسسات الاستهلاكية الكبرى تعمل من خلال وسائل الإعلان على تحويل الفرد إلى كائن شره كالرضيع الأبدي الذي يود أن يستهلك المزيد والمزيد ويتحول أمامه كل شيء إلى سلعة استهلاكية: السجائر – المشروبات الكحولية – الجنس – الأفلام السينمائية – التليفزيون – السفر، وحتى التعليم والكتب والمحاضرات. تُخلق المزيد من الاحتياجات المصطنعة ليتم التحكم في ذوق الإنسان. عادة ما تُعرَّف الشخصية الاستهلاكية في أقصى صورها المتطرفة بأنها ظاهرة مرضية نستطيع أن نجدها في العديد من الحالات التي

نجد فيها أشخاصًا مكتئبين أو قلقين يهربون عبر المزيد من الطعام أو الشراء أو الكحول للتعويض عن اكتئابهم وقلقهم الخفيين. إن الشره للاستهلاك في صورته المتطرفة والذي أطلق عليه فرويد "الشخصية الفموية" هو القوة النفسية المهيمنة في مجتمعنا الصناعي اليوم. تكمن الشخصية الاستهلاكية خلف أوهام السعادة، بينما في اللا وعي تعاني من الملل والكمون. بقدر سيطرة الإنسان على الآلات، بقدر العجز الذي يصبح عليه. بقدر ما يستهلك بقدر ما يصبح عبدًا للاحتياجات المتنامية التي يخلقها النظام الصناعي ويعالجها ببراعة. إنه يخلط إدراك الفرح والسعادة بالإثارة والتسلية، ويخلط بين الراحة المادية وبين الحيوية والنشاط، حينها يشكل إرضاء الطمع معنى الحياة بأسرها، والسعي نحو الشراهة دينًا جديدًا. حينئذ تصبح حرية الاستهلاك جوهر الحرية الإنسانية.

تُمثِّل الروح الاستهلاكية النقيض الكامل للمجتمع الاشتراكي الذي تصوره ماركس. لقد رأى ماركس بوضوح الخطر المتلازم مع الرأسمالية، وهدف إلى ذلك المجتمع الذي يعني فيه الإنسان الكثير، لا تكون قيمته فيما يستخدمه أو يملكه. لقد أراد تحرير الإنسان من قيود الطمع المادي ليصبح واعيًا بحق وحيًّا حساسًا، وليس عبدًا لشراهته. كتب ماركس وقتها: "إن إنتاج الكثير من السلع المفيدة يخلق الكثير من البشر الخاوين". لقد أراد القضاء على ذلك الفقر الشديد لأنه يمنع الإنسان عن أن يكون إنسانًا كاملا، وأراد أيضًا القضاء على ذلك الثراء

المتطرف الذي يصبح فيه الفرد سجينًا لأطماعه. لم يكن هدفه الاستهلاك الأقصى، ولكن الأمثل لإشباع الحاجات الأصيلة في الإنسان والتي تعود عليه بحياة أكثر ثراء وكمالا.

من الأشياء التي تثير السخرية التاريخية أن روح الرأسمالية وإشباع الأطماع تغزو البلدان الشيوعية والاشتراكية والتي من المفترض أن باقتصادها المخطط تملك الوسائل لكبحها. هذه العملية لها منطقها الخاص، فالنجاح المادي للرأسمالية ترك تأثيرًا هائلا على تلك البلدان الأوروبية الأكثر فقرًا والتي نجحت الشيوعية في الوجود بها، فأصبح انتصار الاشتراكية مرهونًا بالنجاح في المنافسة مع الرأسمالية وبالطبع يحدث هذا في إطار من روح الرأسمالية. إن الاشتراكية الآن تواجه خطر أن تتدهور في ظل نظام قادر على إتمام التصنيع في بلدان فقيرة بسرعة أكبر مما تستطيعه الرأسمالية ذاتها، بدلا من أن تصبح مجتمعات هدفها الرئيسي العمل على تطوير الإنسان لا الإنتاج الاقتصادي. هذه التنمية لها بعد آخر يتمثل في حقيقة أن الشيوعية السوفييتية في صيغتها الجافة لمادية ماركس قد فقدت اتصالها تمامًا بالتقليد الإنساني الروحي الذي يعد ماركس من أعظم ممثليه كما فعلت الدول الرأسمالية تمامًا.

في الواقع لم تحل بعد الدول الاشتراكية مشكلة إشباع الاحتياجات المادية الضرورية لسكانها، ولا حتى الولايات

المتحدة التي لا يعيش 40% من سكانها في وضع الوفرة؛ لكن الأكثر أهمية أن يعي الاقتصاديون الاشتراكيون والفلاسفة والعلماء النفسيون خطورة تحول هدف الاستخدام الأمثل إلى الاستخدام الأقصى. تتمثل هنا مهمة المنظرين الاشتراكيين في دراسة طبيعة الأهداف الإنسانية بهدف إيجاد معايير للتمييز بين الاحتياجات الإنسانية الحقيقية للوصول إلى الإشباع الذي يجعل الإنسان أكثر حيوية وحساسية، وبين الاحتياجات المصنعة التي خلقتها الرأسمالية لتضعف الإنسان وتجعله أكثر سلبية ورتابة، يكون عبدًا لشراهته للأشياء.

ما أحاول التشديد عليه هنا ليس وجوب تقييد الإنتاج، لكني أحاول الإشارة إلى أنه بمجرد الوصول لإشباع حاجات الفرد الحقيقية، يجب تحويله لإنتاج وسائل الاستهلاك الاجتماعي مثل المدارس والمكتبات والمسارح والحدائق والمستشفيات والمواصلات العامة.. إلخ. إن الاستهلاك الفردي المتنامي في البلدان الصناعية الكبرى يرينا كيف أن المنافسة والطمع والحسد لا يتم توليدهم عن طريق الملكية الخاصة فقط، ولكن أيضًا بالاستهلاك الخاص اللا محدود. لا يجب على المنظرين الاشتراكيين أن تفوتهم حقيقة أن هدف الاشتراكية الإنسانية بناء مجتمع صناعي يهدف إطاره الإنتاجي لخدمة التطور الكامل للبشر، لا خلق نموذج الشخصية الاستهلاكية؛ ذلك لأن المجتمع الاشتراكي مجتمع صناعي يناسب احتياجات الإنسان ليعيش فيه ويعمل على تطوير ذاته.

هناك العديد من الطرق التجريبية التي تسمح بها دراسة الشخصية الاجتماعية. الهدف من تلك الدراسة اكتشاف مدى تأثير التناذرات الشخصية المختلفة في مجموع السكان وفي كل طبقة على حدة. أيضًا اكتشاف حدة العوامل المختلفة في هذه التناذرات، والعوامل الجديدة والمتناقضة والتي نتجت عن ظروف اجتماعية اقتصادية مختلفة. كل هذه المتغيرات تسمح لنا بإدراك قوة بناء الشخصية الحالي، وعملية التغيير وأيضًا ما هي الإجراءات التي قد تسهل هذه التغيرات. لا أحتاج للإشارة لمدى أهمية تلك الرؤية في بلدان تتحول من الزراعة إلى التصنيع بالإضافة لمشكلة تحول العامل الواقع تحت إطار من الرأسمالية أو رأسمالية الدولة والتي تشكل ظروفًا تجعله يشعر بالاغتراب إلى ظروف جديدة اشتراكية حقيقية. بالإضافة لما سبق فإن هذه الدراسات سوف ترشدنا إلى تحرك سياسي. إن عرفتُ الآراء السياسية كما تشير إليها الاستفتاءات فيمكنني أن أعرف كيف يمكن أن يتصرفون في المستقبل بشكل محتمل. إن أردت معرفة القوى النفسية التي من المحتمل ألا تكون ظاهرة في الوقت الحالي بوضوح مثل العنصرية على سبيل المثال أو الرغبة في الحرب أو السلام، فستخبرني دراسات الشخصية من تلك الشاكلة بقوة واتجاه القوى الكامنة والتي ستؤثر في العملية الاجتماعية، والتي من الممكن ألا تظهر إلا بعد وقت ما[27].

27على سبيل المثال لم تظهر التدميرية في الطبقة الوسطى الألمانية إلا عندما منحها هتلر الفرصة لتعبر عن نفسها.

يضيق هنا المجال لمناقشة تلك الطرق بالتفصيل التي تمكننا من اكتساب تفاصيل الشخصية التي ذكرناها سابقًا. لكن ما يجمعها بشكل عام هو تجنب خطأ قبول الأيدولوجيات وتبريرها من أجل التعبير عن الحقيقة الداخلية التي تكون عادة غير واعية. أثبتت الاستفتاءات المفتوحة أنها إحدى أهم الوسائل الفعالة في هذا المجال. فالإجابات التي تُقدم لها تؤول على أنها معان غير مقصودة تحدث بشكل لا واعٍ. ستكون إجابة سؤال من قبيل: "من هم الرجال الذين تكن لهم الإعجاب في التاريخ البشري؟" . إنهم الإسكندر الأكبر – نيرون – ماركس – لينين. سوف تحمل إجابة أخرى أسماء مغايرة مثل: سقراط – باستور – ماركس – لينين. من هنا نستنتج أن الإجابة الأولى تحمل إعجابًا بالقوة والسلطة الصارمة، أما الثانية فتحمل إعجابًا بهؤلاء الذين يعملون من أجل خدمة الحياة ويقدمون الخير للبشرية. من الممكن عن طريق استفتاءات ممتدة اكتساب رؤية موثوق بها عن بناء شخصية الفرد[28]. تساعد اختبارات موضوعية أخرى مثل تحليل النكات والأغاني والقصص

28 قمت بتطبيق هذه الطريقة لأول مرة مع بروفيسور P. Lazarsfeld، Schachtel، وآخرون، في معهد البحث الاجتماعي بجامعة فرانكفورت في عام 1931، ثم بجامعة كولومبيا. كان هدف البحث تقصي تأثير الفاشية بالمقارنة بالميزات غير الفاشية بين العمال والموظفين الألمان. خرجت النتائج ملائمة بدرجة كبيرة مع الحقائق التي أظهرها التطور التاريخي اللاحق. استخدمت نفس الطريقة في دراسة نفسية لقرية مكسيكية صغيرة بدعم من مؤسسة التمويل البحثي للطب النفسي تحت إشرافي، ومساعدة د. Lola Schwartz، Theodore، Michael Maccoby.

والسلوكيات التي يتم ملاحظتها (خاصة الأفعال الصغيرة التي تحمل أهمية بالغة للملاحظة النفسية) على تصحيح النتائج. بشكل علمي فإن التأكيد الأهم في كل تلك الدراسات سيتركز على طابع الإنتاج والرضا الطبقي الناتج عن ذلك وعلى أهم السمات الشخصية والأشكال المتناذرة التي تشكلها، وأيضًا على العلاقة بين هاتين المجموعتين من المعلومات. عن طريق العينات المُرتَّبة يمكن دراسة الأمة كلها أو الطبقات الاجتماعية الضخمة بتضمين أقل من 1000 شخص في الفحص.

يعد ما أطلق عليه فرويد "العقل اللا واعي" عاملا آخر شديد الأهمية في علم النفس الاجتماعي التحليلي. لكن في الوقت الذي اهتم فيه فرويد بالكبت الفردي فقط، فإن دارس علم النفس الاجتماعي الماركسي سوف يكون أكثر اهتمامًا "بالعقل اللا واعي الاجتماعي". يشير المفهوم إلى الكبت في الحقيقة الداخلية الذي يحدث عند مجموعات كبيرة. كل مجتمع يجب أن يبذل قصارى جهده لمنع أعضائه أو أعضاء طبقة معينة من أن يكونوا على وعي بالدوافع التي إن كانوا على وعي بها فسوف تقود إلى أفكار أو أفعال اجتماعية خطيرة. بهذا سيعمل على تشكيل رقابة فعالة، ليست بالطبع على مستوى الرقابة على الكلمة المطبوعة أو المكتوبة ولكن بمنع الأفكار من أن تصبح واعية. بشكل طبيعي فإن مكونات اللا وعي الاجتماعي تختلف بشكل كبير بناء على الأشكال المختلفة للبناء الاجتماعي على سبيل المثال لا الحصر: العدوانية – التمرد – التواكل –

الوحدة – التعاسة – الملل. ويجب الاستمرار في كبت ذلك الدافع بالنسبة لتلك المجتمعات ويُستبدل بأيدولوجيات تنكره أو تؤكد نقيضه. فإنسان اليوم الذي يشعر بالملل والقلق والتعاسة في مجتمعنا الصناعي يُلقَّن أنه سعيد وأن لديه كثير من التسلية. في مجتمعات أخرى تحرم أعضاءها حرية الفكر والتعبير يُلقنون أنهم وصلوا إلى أقصى أشكال الحرية حتى وإن كان زعماء هذا المجتمع فقط هم من يتحدثون باسم هذه الحرية. في بعض الأنظمة يُقمع حب الحياة ويُفعَّل حب التملك بدلا منه، وفي مجتمعات أخرى يُقمع الشعور بالاغتراب والغربة ويُستبدل بشعار على شاكلة: "لا توجد غربة في دولة اشتراكية".

أشار هيجل وماركس إلى طريقة أخرى للتعبير عن ظاهرة اللا وعي، وهي مجموع القوى التي تعمل خلف الإنسان في الوقت الذي يظن نفسه فيه أنه حر في اتخاذ قراراته، وكما ذكر من قبل آدم سميث: "إن الإنسان الاقتصادي يُوجَّه بيد خفية إلى غاية لم يكن ينتويها أبدًا". بينما كانت تلك اليد الخفية خيِّرة بما يكفي في نظر آدم سميث، كانت خطيرة بالنسبة لماركس وفرويد. يجب تعريتها من أجل حرمانها من فعاليتها الشديدة. إن الوعي ظاهرة اجتماعية، وبالنسبة لماركس فإنه غالبًا ما يكون وعيًا مزيفًا وهو عمل قوى الكبت. واللا وعي كما الوعي هو أيضًا ظاهرة اجتماعية تُوجه بتلك المصفاة الاجتماعية والتي لا تسمح أبدًا لمعظم التجارب الإنسانية الحقيقية أن تنتقل من اللا وعي إلى الوعي. تلك

المصفاة الاجتماعية تتألف أصلا من اللغة والمنطق والتابوهات الاجتماعية، وتُغطَّى بأيدولوجيات وتبريرات تبدو وكأنها حقيقية في الوقت الذي لا تشكل فيه في الواقع شيئًا بل هي خيالات تُولَّد اجتماعيًّا بصورة مشتركة. هذا المنحى بخصوص الوعي والكبت يمكن أن يوضح لنا بشكل تجريبي قيمة مقولة ماركس الآتية: "إن الوجود الاجتماعي يعمل على تحديد الوعي".

كنتيجة طبيعية لهذه الاعتبارات سنجد اختلافًا نظريًّا آخر بين الدوجما الفرويدية والماركسية في التحليل النفسي. آمن فرويد بأن الخوف من الإخصاء هو السبب الرئيسي للكبت والعامل الأول الذي يُكبت هو رغباتنا المتعلقة بسفاح المحارم. بينما أؤمن - على العكس من ذلك - إن خوف الإنسان من العزلة الكاملة عن المجتمع والنبذ الكامل له فرديًّا واجتماعيًّا هو الخوف الأكبر في حياته. حتى الخوف من الموت يمكن تحمله. يستطيع المجتمع تنفيذ مطالبه بالكبت عن طريق التهديد بالنبذ، فإن لم تنكر وجود بعض التجارب الحالية فأنت لا تنتمي.. أنت تنتمي للّلا مكان... أنت في خطر أن تصبح مجنونًا. الجنون في الحقيقة هو المرض الذي تم تشخيصه بالغياب الكامل للعلاقات مع العالم الخارجي.

لقد ادعى الماركسيون مرارًا أن القوى الاقتصادية وتمثيلها سياسيًّا هي ما تعمل من خلف الإنسان وتوجهه. لكن دراسة التحليل النفسي توضح لنا أن هذا مفهوم ضيق للغاية؛

فالمجتمع يتكون من البشر وكل شخص منهم مزود بمجموعة كامنة من الصراعات الوجدانية، وهذا يسري على أشد المجتمعات تقدمًا تمامًا مثل المجتمعات القديمة. تتشكل الطاقة البشرية الكامنة بوجه عام عن طريق مجموعة من القوى الاقتصادية والاجتماعية التي تميز كل مجتمع، وتنتج قوى هذه المجموعة الاجتماعية لا وعيًا اجتماعيًّا معينًا، وصراعات معينة بين عوامل الكبت والاحتياجات البشرية المطلوبة والضرورية من أجل أداء بشري عاقل مثل درجة معينة من الحرية والتحفيز والرغبة في الحياة والسعادة. في الواقع - وكما ذكرت سابقًا - فإن الثورات تحدث ليس فقط كتعبير عن القوى الإنتاجية الجديدة؛ ولكن أيضًا كتعبير عن الجزء المكبوت في الطبيعة الإنسانية، وتنجح فقط عندما تربط هذين العاملين. الكبت يشوه الإنسان سواء تم إنتاجه بشكل فردي أو اجتماعي، ويعمل على تشظيه وحرمانه من كامل إنسانيته. إن الوعي يعبر عن الإنسان الاجتماعي الذي ينشئه أي مجتمع، أما اللا وعي فيعبر عن الإنسان الكوني الذي بداخلنا جميعًا، الطيب والشرير، الإنسان الكامل الذي يبرر مقوله ترنتيوس[29]: "إني أؤمن بأن لا شيء إنساني يمكن ألا يوجد داخلي"، وهذا بالمصادفة هو شعار ماركس المفضل.

29ولد تيرنتيوس في قرطاجة سنه 185 ق.م. وعاش في روما كعبد، ومن هنا كان اسمه Afir طبقا للتقاليد بالنسبة للعبيد، فقد يسمون تبعًا للبلد الذي جاءوا منها، وكان مواطنا إفريقيًّا من قرطاجنة، جاء إلى روما عبدًا، وسرعان ما قدره سيده السناتور Terentius،

لقد أسهم علم نفس الأعماق في مشكلة تلعب دورًا رئيسيًا في نظرية ماركس، بالرغم من أنه لم يصل إلى حل كاف لها، وهي مشكلة جوهر طبيعة الإنسان. من ناحية لم يُرِد ماركس خاصة بعد 1844 أن يستخدم مفهومًا ميتافيزيقيًا غير تاريخي مثل: "جوهر الإنسان" والذي استُخدم لآلاف المرات بواسطة كثير من الحكام بهدف إثبات أن قواعدهم وقوانينهم متوافقة مع ما أعلنوا أنه طبيعة الإنسان التي لا تتغير. من ناحية أخرى عارض أصحاب الرؤية النسبوية ماركس، والتي ترى الإنسان مولودًا كصفحة بيضاء تملأها كل ثقافة بما تريد. لو أن هذا صحيح فكيف يمكن للإنسان أن يتمرد ضد هذه الأشكال من الوجود التي يجبر كل مجتمع أعضاؤه عليها؟ كيف أمكن لماركس أن يستخدم مفهوم الإنسان العاجز إن لم يكن يملك مفهومًا عن نموذج الطبيعة الإنسانية والتي قد تكون عاجزة؟ توجد إجابة تقوم على التحليل النفسي تكمن في الافتراض بأنه لا يوجد جوهر للإنسان بمعنى المادة التي تظل كما هي على مر التاريخ. في رأيي يمكننا أن نجد الإجابة في حقيقة أن جوهر الإنسان يكمن في التناقض بين وجوده في الطبيعة رغمًا عن إرادته في مكان وزمان عشوائيين وفي نفس الوقت تجاوزه للطبيعة: بين احتياجاته الغريزية الضرورية وبين وعيه الذاتي ووعيه بالآخرين وبالماضي والحاضر. إن الإنسان يعد فلتة الطبيعة، ويمكن أن

ولذلك فقد حمل لقب سيده، وقد ذهب إلى بلاد اليونان بعد أن كتب مسرحياته الستة الباقية لنا، ولم يعد من هذه الرحلة مرة أخرى إلى روما، ومات سنة 159 ق.م. (المترجم)

يشعر بوحدة لا تحتمل حتى يتمكن من حل ذلك التناقض بإيجاد شكل جديد من الوحدة. إن التناقض الجوهري في وجود الإنسان يجبره على البحث عن حل لذلك التناقض ليجد إجابة عن ذلك السؤال الذي توجهه له الحياة منذ لحظة مولده. توجد إجابات يمكن التحقق منها بشكل محدود للسؤال: كيف يمكن أن نجد تلك الوحدة؟ يستطيع الإنسان أن يجد الوحدة بارتداده للمرحلة الحيوانية بإبعاد ما هو إنساني بشكل خاص (المنطق والحب)، بأن يصبح عبدًا أو بتشيء ذاته أو أيضًا بتطوير قواه الإنسانية الخاصة حتى يصل إلى ذلك المدى الذي يجد فيه وحدة جديدة بينه وبين الآخر وبينه وبين الطبيعة، بتحرير ذاته ليس فقط من القيود ولكن أيضًا بتطوير قواه الكامنة التي تشكل الهدف الرئيسي للحياة ليصبح مدينًا بوجوده لجهوده المنتجة. إن الإنسان لا يملك دافعًا فطريًا للتقدم ولكنه مُساق بحاجته لحل ذلك التناقض الوجودي والذي يظهر في كل مرحلة جديدة من التطور. هذا التناقض – أو بتعبير آخر هذه الاحتمالات المختلفة والمتناقضة – تشكل وجوده.

من أجل أن نوجز ما سبق، فإن هذه المقالة تعد حجة لتقديم تحليلا نفسيًا جدليًا إنسانيًا حول نظرية ماركس، وإني أؤمن أن الماركسية في حاجة لنظرية نفسية من ذلك القبيل، وأن التحليل النفسي يحتاج أن يتآلف مع عبقرية نظرية ماركس الأصيلة. وهذا التآلف بين الاثنين سوى يثري كلا القطاعين.

فليغلب الإنسان! (دع الإنسان يسود)

عندما انفتح عصر القرون الوسطى على مصراعيه بدا وكأن الإنسان الغربي قد وصل إلى أقصى درجة من تحقيق أحلامه ورؤاه. لقد حرر نفسه من سلطة الكنيسة المستبدة، ومن ثقل التفكير التقليدي، ومن الحدود الجغرافية لنصف الكرة الأرضية المكتشف. لقد اكتشف الطبيعة والفردانية وأصبح على وعي بقوته الخاصة ومقدرته على جعل نفسه سيدًا على الطبيعة والظروف المتاحة بشكل طبيعي. لقد آمن أنه سيصبح قادرًا على تحقيق التآلف بين شعوره الوليد والجديد بالقوة وبالمنطق، وبين قيمه الروحية النابعة من تقليده الروحي الإنساني، وأيضًا بين الفكرة النبوية عن العصر المسياني[30] للسلام والعدالة، والذي سيتحقق بواسطة الإنسان إبان العملية التاريخية، وبين التقليد اليوناني في التفكير

30 يقصد فروم بالعصر المسياني ما ذُكر بسفر أشعياء، وهو أحد أنبياء اليهود الكبار: "فأبتهج بأورشليم وأفرح بشعبي، ولا يسمع بعد فيها صوت بكاء ولا صوت صراخ. لا يكون بعد هناك طفل أيام، ولا شيخ لم يكمل أيامه. لأن الصبي يموت ابن مائة سنة، والخاطئ يلعن ابن مائة سنة. ويبنون بيوتا ويسكنون فيها، ويغرسون كروما ويأكلون أثمارها. لا يبنون وآخر يسكن، ولا يغرسون وآخر يأكل. لأنه كأيام شجرة أيام شعبي، ويستعمل مختاري عمل أيديهم. لا يتعبون باطلا ولا يلدون للرعب، لأنهم نسل مباركي الرب، وذريتهم معهم. ويكون أني قبلما يدعون أنا أجيب، وفيما هم يتكلمون بعد أنا أسمع. الذئب والحمل يرعيان معا، والأسد يأكل التبن كالبقر. أما الحية فالتراب طعامها. لا يؤذون ولا يهلكون في كل جبل قدسي، قال الرب". أش 65: 19 – 25. (المترجم)

النظري. في القرون التالية لعصر النهضة والإصلاح الديني أنشأ الإنسان علمًا جديدًا أدى في النهاية لإطلاق قوى إنتاجية مهولة، وإلى التحول الكامل للعالم المادي. لقد خلق أنظمة سياسية بدت أنها تستطيع أن تضمن له التطور الحر المنتج للفرد. قام بتقليل أوقات العمل إلى تلك الدرجة التي تجعل الإنسان الغربي حرًّا في الاستمتاع بساعات من وقت الفراغ بدرجة لم يحلم بها الأسلاف من قبل.

لكن أين نحن اليوم؟

لقد انقسم العالم إلى معسكرين: المعسكر الرأسمالي، والآخر الشيوعي[31]. يؤمن كل منهما أنه لديه المفتاح لتحقيق الآمال الإنسانية للأجيال القادمة، وكلاهما يصر على ذلك، وبينما يجب عليهما أن يتعايشان معًا فإن أنظمتهما متعارضة.

هل هما على حق؟ ألا يسير الاثنان في الطريق نحو التحول بشكل متقارب إلى مجتمع صناعي جديد أشبه بالإقطاعية القديمة؟ ألا يشكل كلاهما مجتمعًا صناعيًّا يُدار ببراعة بواسطة مجتمعات بيروقراطية ضخمة قوية يصبح فيها الفرد آلة تتغذى حتى البدانة ويتم تسليتها بشكل جيد فيفقد فيها فردانيته واستقلاليته وبالتالي إنسانيته؟ أعلينا أن نستسلم لحقيقة أننا نستطيع أن نسود على الطبيعة وننتج البضائع

---

31 لا يخفى على القارئ أن وقت كتابة هذه المقالات كان إبان الحرب الباردة.

بشكل متزايد ولكننا يجب أن نتخلى عن الأمل في تكوين مجتمع جديد متماسك وعادل، وأن هذه الفكرة سوف تتلاشى في ذلك المفهوم التكنولوجي الفارغ عن التقدم؟

أليس لدينا بديل آخر بين تلك السياسة الصناعية الرأسمالية وبين نظيرتها الشيوعية؟ ألا نستطيع بناء مجتمع صناعي يعيد فيه الفرد لعب دوره كعضو مسئول نشط يستطيع التحكم في الظروف أكثر من تحكمها فيه؟ هل حقًّا الثروة الاقتصادية والتحقق الإنساني متعارضان؟

إن هذين المعسكرين لا يتنافسان اقتصاديًّا وسياسيًّا فقط، ولكن كلاهما يقف ضد الآخر في خوف قاتل من هجمة ذرية ستدمر كلاهما إن لم تكن الحضارة الإنسانية كلها. لقد خلق الإنسان بالفعل هذه القنبلة الذرية. إنها نتاج لأحد أهم منجزاته العقلية، لكنه فقد السيادة على ما خلقه. لقد أصبحت القنبلة هي السيد وأصبحت قوى ما خلقه أخطر عدو له.

هل ما زال هناك وقت لنعكس ذلك المنحى؟ أنستطيع تغييره بنجاح لنصبح أسياد الظروف بدلا من أن نسمح لها بالتحكم فينا؟ هل نستطيع التغلب على تلك الجذور العميقة للبربرية والتي تجعلنا نعمل على حل المشاكل بالطريقة الوحيدة التي لا يمكن أبدًا أن تُحل بها المشاكل فعليًّا وهي القوة والعنف والقتل؟ هل يمكن غلق تلك الفجوة بين منجزاتنا العقلية العظيمة وبين تخلفنا العاطفي والأخلاقي؟

من أجل الإجابة على تلك الأسئلة علينا أن نفحص بشكل تفصيلي وضع الإنسان الغربي الحالي.

إن قضية نجاح مجتمعنا الصناعي تبدو أنها واضحة لمعظم الأمريكيين بشكل مؤثر جدًّا. إن الأشكال الجديدة من القوى الإنتاجية كالبخار والكهرباء والبترول والطاقة الذرية، والأشكال الجديدة في إدارة العمل والتخطيط المركزي والبيروقراطية وازدياد تقسيم العمل والآلية عملت على خلق ثروة مادية في معظم البلدان الصناعية المتقدمة والتي تخلصت من الفقر الحاد الذي عاش فيه غالبية سكانها منذ مائة عام سابقة.

قلت ساعات العمل من سبعين إلى أربعين ساعة بالأسبوع في المائة عام الأخيرة، وبتزايد الآلية فإن يوم عمل أقصر قد يعطي المرء كمية من الوقت للتسلية والمتعة لم يحلم بها من قبل. توفّر التعليم الأساسي لكل طفل، والتعليم العالي لنسبة معتبرة من السكان. ملأت السينما والراديو والتليفزيون والرياضة والهوايات المختلفة عديد الساعات المتاحة للمرء كوقت فراغ.

يبدو بالفعل للمرة الأولى في التاريخ أن الغالبية الكبرى - وقريبًا الجميع- في العالم الغربي سيهتمون بشكل أساسي بالعيش أكثر من الكفاح من أجل توفير الظروف المادية الأساسية للعيش. يبدو أن أجمل أحلام أسلافنا على وشك أن

تتحقق، وأن العالم الغربي قد وجد الإجابة للسؤال عن ماهية الحياة الجيدة.

بينما يتشارك غالبية البشر في أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية في هذه الرؤية، إلا أن عددًا متزايدًا من الأشخاص ذوي النظرة الثاقبة والأكثر حساسية يستطيعون رؤية التصدعات في تلك الصورة المغوية. لقد لاحظوا قبل كل شيء أنه حتى في أغنى بلدان العالم – في الولايات المتحدة الأمريكية - فحوالي خمس السكان لا يشاركون الغالبية في تلك الحياة الرغدة، وأن عددًا معتبرًا من مواطنينا لم يصلوا بعد إلى ذلك المستوى المادي من العيش الذي يعد أساسيًا من أجل وجود إنساني كريم. إضافة إلى ذلك فإنهم على وعي أن أكثر من ثلثي الجنس البشري والذين كانوا لعدة قرون هدفًا للاستعمار الغربي يعيشون في مستوى يقل عن مستوانا من عشرة إلى عشرين مرة، إضافة لمتوسط عمر يصل إلى نصف مثيله عند الأمريكي العادي.

إنهم مصدومون بشدة من تلك المتناقضات اللاعقلانية التي تحيط بنظامنا. نحد من إنتاجنا الزراعي، بينما يعيش ملايين بيننا ومئات الملايين في الخارج لا يجدون ما يأكلونه. بالإضافة لذلك ننفق مئات الملايين كل عام في تخزين الفائض. لدينا الوفرة ولكن ليست لدينا السعادة. نحن الآن أكثر ثراء ولكننا أقل حرية. نستهلك المزيد ولكننا أكثر خواءً. لدينا المزيد

من الأسلحة الذرية ولكننا أكثر عرضة للهجوم. لدينا المزيد من التعليم ولكننا أقل قدرة على النقد والإقناع. لدينا المزيد من التدين ولكننا نصبح أكثر مادية. نتحدث عن التقليد الأمريكي والذي هو في الحقيقة التقليد الروحي للنزعة الإنسانية الثورية ولكننا ندعو هؤلاء الذين يودون تطبيقه على المجتمع الأمريكي الحالي بأنهم غير أمريكيين.

بالرغم من ذلك فحتى إن أرحنا أنفسنا كما يفعل الكثيرون بافتراض أن المسألة ستستغرق فقط بعض الأجيال القليلة حتى يصل الغرب ومن بعده العالم كله في النهاية إلى الوفرة الاقتصادية، فإن السؤال الذي يطرح نفسه أمامنا: ماذا حدث للإنسان؟ وإلى أين هو ذاهب إذا استمرينا في هذا الطريق الذي رسمه لنا نظامنا الصناعي؟

ومن أجل أن نفهم كيف أدت تلك العناصر التي بواسطتها نجح نظامنا في حل بعض المشاكل الاقتصادية إلى هذا الفشل في حل المشكلة الإنسانية، من الضروري أن نفحص تلك الملامح التي شكَّلت رأسمالية القرن العشرين.

أدى التركيز على رأس المال إلى تشكيل مؤسسات عملاقة تُدار بواسطة بيروقراطيات متسلسلة هرميًا. من أجل إدارة التكتلات الضخمة للعمال الذين يعملون معًا كجزء من ماكينة الإنتاج المنظمة الهائلة، يجب أن يجري هذا بسلاسة دون أي احتكاكات. هنا يصبح العامل والموظف مجرد شيئًا

ثانويًا أشبه بسن الآلة، وتُحدَّد وظائفهما وأنشطتهما بواسطة البناء الكلي للمؤسسة التي يعملون فيها. ينفصل المالكون الحقيقيون لوسائل الإنتاج في المؤسسات العملاقة عن الإدارة تمامًا ويفقدون أية أهمية. لكن المؤسسات الضخمة الآن تُدار بواسطة إدارات بيروقراطية لا تملك المؤسسة بشكل قانوني؛ ولكنها تملكها بشكل اجتماعي. هؤلاء المديرون ليست لديهم تلك الصفات التي كانت عند القدامى كالمبادرة الفردية والجرأة وتحمل المخاطر، لكن على العكس فإن سمات البيروقراطيين هي نقص النزعة الفردية والموضوعية المتجردة والحذر ونقص الخيال. إنهم يديرون الأشياء والأشخاص بنفس الطريقة، ويتعاملون مع الأشخاص كالأشياء تمامًا. هذه الطبقة التي تتحكم في الإدارة ربما لا تملك المؤسسة بشكل قانوني، ولكن في الواقع تتحكم فيها تمامًا. إنها مسئولة بشكل فعَّال لا يتوفر في حاملي الأسهم أو أولئك الذين يعملون في المؤسسة. في الواقع بينما تقع أهم مجالات الإنتاج في أيدي المؤسسات العملاقة، فإنها تُدار عمليًا بواسطة موظفين أكفاء. تُدار هذه المؤسسات العملاقة التي تتحكم في الاقتصاد وبدرجة كبيرة في المصير السياسي للبلاد بطريقة تشكل نقيضًا للعملية الديمقراطية. إنهم يمثلون القوة المطلقة بلا أدنى تحكم من هؤلاء الذين يخضعون لها.

بعيدًا عن البيروقراطية الصناعية، فإن الغالبية الكبرى من السكان يُحكمون بواسطة بيروقراطية أخرى أيضًا؛ قبل

كل شيء بواسطة البيروقراطية الحكومية (التي تشمل القوات المسلحة) والتي تؤثر في حياة الملايين بشكل أو بآخر. تتضافر البيروقراطيات الصناعية والعسكرية والحكومية بشكل متزايد في أنشطتها وأيضًا على المستوى الشخصي. لكن مع تطور المؤسسات الكبرى، فإن النقابات أيضًا تطورت لتصبح آلات بيروقراطية ضخمة لا يملك فيها الفرد الكثير ليقوله. الكثير من رؤساء النقابات هم في النهاية بيروقراطيون إداريون كرؤساء الصناعة تمامًا.

ليست لدي كل تلك البيروقراطيات خطة أو رؤية، ونظرًا لطبيعة الإدارة البيروقراطية فإن هذا ما يجب أن يكون. عندما يتشيأ الإنسان ويدار كشيء، فإن مديريه أنفسهم يصبحون أشياء، والأشياء ليست لديها إرادة أو رؤية أو خطة.

مع هذه الإدارة البيروقراطية للناس، تغدو العملية الديمقراطية طقسًا شعائريًا. سواء كان الأمر يتعلق باجتماع حاملي الأسهم بمؤسسة ضخمة، أو بانتخاب سياسي، أو اجتماع نقابة، فإن الفرد فقد تقريبًا كل تأثيره في تحديد القرارات أو في المشاركة بشكل فعَّال في صنع القرار؛ خاصة في المجال السياسي، فإن الانتخابات تقتصر أكثر على كونها مجرد استفتاءات شعبية يستطيع فيها الفرد أن يعبر عن اختياره لواحد من اثنين من السياسيين المحنكين. وأفضل ما يمكن قوله في هذا الصدد أنه يُدفع للقبول. لكن الطرق التي يتم بها

جلب تلك الموافقة تعتمد على الإيحاء والتحايل، ومع كل ذلك فإن أهم القرارات والتي تخص السياسة الخارجية مثلا والتي تتضمن الحرب والسلام تُتخذ بواسطة مجموعات صغيرة بالكاد يسمع عنها المواطن العادي.

لم تكن الأفكار السياسية عن الديمقراطية كما تصورها الآباء المؤسسون للولايات المتحدة سياسية بحتة؛ لكنها كانت مغروسة في التقليد الروحي والذي وصلنا من المسيانية النبوية والأناجيل والنزعة الإنسانية، وأيضًا من فلاسفة التنوير بالقرن الثامن عشر. تمركزت كل تلك الأفكار والحركات حول أمنية واحدة، وهي أن الإنسان عبر تاريخه يمكنه أن يحرر نفسه من الفقر والجهل والظلم، وأنه يستطيع بناء مجتمع يسود فيه التناغم والسلام والوحدة بين الإنسان وأخيه الإنسان من ناحية، وبين الإنسان والطبيعة من ناحية أخرى. تشكِّل فكرة غائية التاريخ والإيمان بقدرة الإنسان على الوصول للكمال خلال العملية التاريخية أهم عناصر الفكر الغربي. إنها التربة التي غرس فيها الأسلاف التقليد الأمريكي، ومنها يستمد قوته وحيويته. ماذا حدث إذن لفكرة امكانية وصول الإنسان والمجتمع للكمال؟ لقد تدهورت بمفهوم شديد السطحية عن التقدم، لتتحول إلى رؤية إنتاج أشياء أكثر وأجود بدلا من النضال من أجل ولادة حياة إنسان حي فعلا ومنتج. لقد فقدت مفاهيمنا السياسية اليوم كل جذورها الروحية، وأضحت مجرد وسائل نفعية يحكمها معيار وحيد وهو ما إن كانت

تساعدنا أن نعيش بمستوى معيشي أعلى أم لا، وعما إن كانت تقود إلى شكل أكثر فعالية في الإدارة السياسية أم لا. أضحت تلك المفاهيم بفقدانها كل الجذور في قلب واشتياقات الإنسان، مجرد محارات فارغة يجب إلقاؤها بعيدًا إن لم يكن هناك مبرر لوجودها.

لا يتم التحكم والسيطرة على الفرد فقط في مجال الإنتاج، ولكن أيضًا في مجال الاستهلاك، حيث يعبّر الإنسان بشكل ظاهري عن اختياره الحر. بغض النظر عما إذا كان هذا الاستهلاك يختص بالطعام أو الملابس أو الشراب أو السجائر أو السينما أو البرامج التليفزيونية، فإن طرقا إيحائية قوية تُوظَّف لغرضين: الأول هو زيادة شهية الفرد باستمرار لسلع جديدة، والثاني هو توجيه الشهية المفتوحة إلى قنوات أكثر ربحًا للصناعة. إن حجم استثمار رأس المال في مجال البضائع الاستهلاكية والمنافسة بين المؤسسات العملاقة تجعل الأمر ضروريًا ألا تُترك عملية الاستهلاك للصدفة ولا نترك للمستهلك حرية الاختيار فيما يريد شراءه والكمية التي يريد شراءها. يجب أن تُثار شهيته بشكل دائم، ويجب التحكم في ذوقه وجعله قابلا للتنبؤ به. لقد تحول الإنسان إلى "المستهلك" الذي يشبه رضيعًا أبديًا أمنيته الوحيدة أن يستهلك أشياء أكثر وأفضل.

بينما عمل نظامنا الاقتصادي على إثراء الإنسان ماديًا أفقره إنسانيًا. بالرغم من كل تلك الدعايا والشعارات عن

إيمان عالمنا الغربي بالله وبالمثالية وباهتماماته الروحية إلا أن نظامنا استطاع خلق ثقافة مادية وإنسانًا ماديًّا يُدار فيها الفرد خلال ساعات عمله كجزء من الفريق الإنتاجي، وخلال أوقات فراغه يُوحي له بقوة ليصبح مستهلكًا مثاليًّا يحب ما أخبروه أن يحبه، بينما هو غارق في وهم اتباع ذوقه الخاص. يُغرَق بالشعارات والإيحاءات وتأثيرات أخرى غير واقعية تحرمه من آخر قطرة لديه من الواقعية. منذ الطفولة يتم تثبيطه عن قناعات حقيقية. لا يتبقى له الكثير من الفكر النقدي أو الشعور الحقيقي، لهذا السبب لا يتبقى له سوى التطابق مع الآخرين ليحمي نفسه من الشعور بالوحدة والضياع الذي لا يمكن تحمله. لم يعد الفرد يختبر نفسه كحامل نشط لقواه الخاصة وغناه الداخلي، ولكن كشيء ضعيف تعتمد خطط حياته كلها ووجوده على قوى خارجية. لقد انسلخ الإنسان عن نفسه وهو ينحني الآن أمام أعمال من صنع يديه. إنه ينحني لأشياء ينتجها؛ ينحني أمام الدولة والزعماء الذين صنعهم. لقد تحول صنعه الحقيقي لقوة تعمل على اغترابه وإعاقته وتقف ضده بدلًا من أن يتحكم هو فيها. الآن أكثر من أي وقت في التاريخ أصبحت المنتجات والآلات والدولة أصنامًا للإنسان المعاصر تعبر عن قوى حياته بشكل مغترب.

لقد كان ماركس على حق حينما اعتقد أن حس التملك قد حل محل كل الحواس والرغبات المادية والعقلية. لقد جعلتنا الملكية الخاصة شديدي الغباء والبلاهة، حتى إننا نظن

أن الأشياء تصبح لنا فقط إن امتلكناها كما لو أنها توجد فقط كرأس مال لدينا حتى نمتلكها ونأكلها ونشربها ونستخدمها. إننا فقراء بالرغم من كل تلك الثروة، فقط لأننا نملك الكثير، ولكن جوهرنا فقير.

نتيجة لما سبق يشعر الإنسان العادي الآن بعدم الأمان والوحدة والاكتئاب ويعاني من نقص الفرح حتى في ظل الوفرة. لم تعد الحياة تعني شيئًا له. إنه على وعي بشكل باهت بأن معنى الحياة لا يمكن أن يكمن في شيء سوى كونه مستهلكًا. إنه لا يستطيع تحمل التعاسة والحياة التي ليس لها معنى لولا حقيقة أن النظام يعرض أمامه دائمًا سبلًا لا نهائية من الهروب بين التليفزيون والمهدئات التي تسمح له بأن ينسى أنه يفقد أكثر وأكثر كل ما يحمل قيمة في الحياة. بالرغم من كل تلك الشعارات فعلى العكس نحن نقترب مسرعين من مجتمع يُدار بواسطة بيروقراطيين يتمكنون من إدارة كتلة البشر؛ يطعمونهم ويعتنون بهم ويفقدونهم إنسانيتهم ليفضوا بهم إلى الاكتئاب. نحن ننتج آلاتٍ تشبه البشر، وبشرًا يشبهون الآلات. ذلك كان النقد الموجه إلى الاشتراكية منذ خمسين عامًا: أننا بهذا الشكل سنصل إلى التماثل والبيروقراطية والمركزية ومادية بلا روح. يتمثل هذا اليوم بوضوح في الرأسمالية. نتكلم كثيرًا عن الحرية والديمقراطية، ولكن عددًا متزايدًا من البشر يخافون مسئولية الحرية ويفضلون عبودية الآلة التي تُطعم

جيدًا، وليس لديهم إيمان بالديمقراطية، بل ويسعدون بتركها للخبراء السياسيين ليصنعوا القرارات بأنفسهم.

لقد خلقنا نظامًا واسع الانتشار من الاتصالات عن طريق الراديو والتليفزيون والصحف، ولكن البشر ما زالوا يُضللون وتُملأ عقولهم بالهراء أكثر من إخبارهم بالحقيقة السياسية والاجتماعية. في الواقع نستطيع أن نجد درجة من التطابق في الآراء والأفكار التي من الممكن شرحها بسهولة إن نتجت عن الضغط السياسي والخوف. الحقيقة هي أن الكل موافقون بإرادتهم بالرغم من حقيقة أن نظامنا يرتكز على فكرة أن الفرد له الحق في عدم الموافقة، ويرتكز أيضًا على الميل إلى التنوع في الأفكار.

لقد أصبح الكلام المراوغ القاعدة الأساسية في دول المؤسسات الحرة، وأيضًا بين الخصوم. يطلق الخصوم على الديكتاتورية: ديمقراطية الشعوب، بينما تطلق دول المؤسسات الحرة على الديكتاتورية: الناس المحبة للحرية، إن كانوا حلفاء لهم. البعض يتكلم إزاء احتمالية موت 50 مليون أمريكي من جراء هجمة ذرية عن مخاطر الحرب، وآخرين عن النصر في المواجهة الحاسمة، ولكن عندما يفكر أي إنسان عاقل حول الأمر سيدرك بوضوح أنه لن يكون هناك أي انتصار لأي شخص في ذلك الهولوكوست الذري.

أما عن التعليم فقد وصل من مراحله الابتدائية حتي مراحله العليا إلى قمته. بينما يتلقَّى الناس المزيد من التعليم إلا أنه لديهم قدرة أقل على التعقل والحكم والإقناع. في أفضل الأوضاع تحسنت مستويات ذكائهم، أما عن التعقل الذي يعطيهم المقدرة على اختراق السطح وفهم القوى الكامنة في الفرد والحياة الاجتماعية فيتم إفقاره مرارًا وتكرارًا. ينفصل التفكير بشكل متزايد عن الشعور، وتبين لنا حقيقة أن الناس الآن يمكنهم تحمُّل تهديد أن يحوم خطر الحرب الذرية حول الجنس البشري أن الإنسان المعاصر قد وصل إلى تلك النقطة التي يجب فحص عقلانيته فيها.

بدلا من أن يصبح الإنسان سيدًا للآلات التي أنتجها، أصبح عبدًا لها. لكن الإنسان لم يُخلق ليصبح شيئًا. مع كل ذلك الشعور بالإشباع الذي تنتجه عملية الاستهلاك إلا أن قوى الحياة في الإنسان لا تستطيع أن تبقى مُعطَّلة بشكل مستمر. لدينا الآن خيار واحد؛ وهو أن نسود على الآلات مرة أخرى ونجعل الإنتاج وسيلة وليس غاية، ونستخدمه من أجل كشف تجليات الإنسان، أو أن تُعبر طاقات الحياة المكبوتة عن نفسها في الفوضى والأشكال التدميرية، فالإنسان سيرغب في تدمير الحياة بدلا من الموت مللا.

هل نستطيع أن نجعل أسلوب مؤسساتنا الاجتماعي والاقتصادي مسئولا عن تلك الحالة الإنسانية؟ كما أشرنا

فيما سبق فإن نظامنا الصناعي وطريقته في الإنتاج والاستهلاك والعلاقات بين البشر التي يعززها تخلق بشكل دقيق ذلك الموقف الإنساني الذي وصفناه، وسبب هذا لا يكمن في أن النظام الصناعي يريد خلق هذا الوضع، ولا يرجع أيضًا إلى النوايا الشريرة داخل الأفراد، ولكن بسبب حقيقة أن شخصية الإنسان العادي تتشكل بممارسة الحياة والتي تُنتج ببناء المجتمع نفسه[32].

لا شك أن المنحى الذي سلكته رأسمالية القرن العشرين شديد الاختلاف عن منحاها في القرن التاسع عشر، وفي الحقيقة فإنه من المشكوك فيه ما إن كان يمكننا أن نطبق نفس الاصطلاح على هذين النظامين. نستطيع أن نجد عوامل مختلفة تميز بحدة رأسمالية القرن العشرين عن أي نظير لها في الماضي، مثل التركيز الهائل على رأس المال في المؤسسات العملاقة وتزايد الفصل بين الإدارة والملكية، ووجود نقابات تجارية قوية، والإعانات الحكومية للزراعة وبعض أجزاء الصناعة، أيضًا عناصر دولة الرخاء والتحكم في الأسعار والسوق المُوجَّه وكثير من العناصر الأخرى.

---

32 وسط هذا التحليل الدقيق للحالة السياسية والاقتصادية العالمية يبدو أن فروم يغفل دور الاستبداد في مقاومة التغيير، فالأمر لا يتعلق فقط بتغيير ذهنية ما، بل في الأساس بالسماح بإجراء هذه التغييرات. (المترجم)

بغض النظر عن المصطلح الذي نختاره، فإن بعض العناصر الأساسية مشتركة بين الرأسمالية القديمة والجديدة مثل مبدأ أن التماسك والحب ليسا هما ما يجلبان نتائج جيدة للجميع، ولكنها تلك الأفعال الفردية الأنانية هي ما تحقق ذلك. أيضًا الإيمان بأن تلك الآلية المجردة والسوق يجب أن يقوما بتنظيم حياة المجتمع وليس الإرادة أو الرؤية والتخطيط. ترفع الرأسمالية من قدر الأشياء (رأس المال) أكثر من الأشخاص (العمل). تنبع القوة من الامتلاك لا من النشاط. تخلق الرأسمالية المعاصرة عقبات إضافية أمام تجلي الإنسان، فإنها تحتاج أن يعمل معًا بتناغم كل من العمال والموظفين والمهندسين والمستهلكين، وهي تحتاج إليهم لأن المؤسسات الضخمة التي تدار بشكل بيروقراطي تتطلب هذا النوع من الإدارة، ومما يمكننا أن نطلق عليه (الإنسان المؤسسي) حتى يناسبها. يتوجب على هذا النظام دائمًا أن يخلق بشرًا يلائمون احتياجاته، يستطيعون التعاون بسهولة ضمن أعداد ضخمة، يستهلكون المزيد والمزيد، يمكن توحيد أذواقهم والتوقع بها والتأثير فيها بسهولة. إنه في حاجة إلى هؤلاء البشر الذين يشعرون بالحرية والاستقلالية ولا يخضعون لمبدأ أو سلطة الضمير رغم أنهم ينوون فعل ما هو متوقع منهم أن يفعلوه ليناسب هذه الماكينة الاجتماعية بأكملها دون أي احتكاك. إنه في حاجة إلى هؤلاء البشر الذي يمكن توجيههم دون قوة، وقيادتهم دون قادة، وتلقينهم دون غرض عدا هدف أن يفعلوا

الأفضل، وأن يستمروا في الحركة. يُدار الإنتاج طبقًا لمفهوم يتلخص في أن استثمار رأس المال لا بد من أن يؤتي بالربح، بدلا من مبدأ يتلخص في أن احتياجات الإنسان الحقيقية هي ما تحدد ما يجب أن يتم إنتاجه. منذ ارتبط كل شيء بمبدأ الربح، بما فيه التليفزيون والراديو والكتب والأدوية، تم قولبة البشر في ذلك النموذج الاستهلاكي، والذي غالبا ما يكون سامًّا للروح، وفي بعض الأحيان للجسد أيضًا. إن فشل مجتمعنا في تحقيق تطلعات الإنسان المغروسة في تقليدنا الروحي له عواقب مباشرة على القضيتين الأكثر اشتعالا الآن: الأولى تتعلق بالسلام، والأخرى تتعلق بالتوازن بين ثروة الغرب وفقر ثلثي الجنس البشري.

إن اغتراب الإنسان المعاصر بكافة عواقبه يجعل من الصعب عليه حل تلك المشاكل. بسبب أن الإنسان أصبح يعبد الأشياء وفقد تبجيله لحياته وحياة أخيه الإنسان، أصابه العمى ليس فقط عن المبادئ الأخلاقية، لكن أيضًا عن التفكير العقلاني الذي يصب في مصلحة وجوده. من الواضح أن التسلح النووي سوف يقود إلى دمار كوني، وحتى إن منعنا الحرب النووية فسوف يقود هذا إلى مناخ من الخوف والشك والأنظمة العسكرية الصارمة، وهو ما يشكل تمامًا المناخ الذي لا تستطيع أن تحيا فيه الحرية والديمقراطية. من الواضح أن الفجوة الاقتصادية بين البلدان الغنية والفقيرة سوف تقود إلى انفجارات وديكتاتوريات عنيفة، ومع ذلك فإن المحاولات

التي لا تلقى قبولا ومن ثم لا فائدة منها. تُقترح لحل هذه المشكلات. بالفعل نحن على وشك إثبات أن الآلهة تعمي أولئك الذين تود تدميرهم.

هذا ما يحدث مع الرأسمالية، وماذا عن الاشتراكية إذن؟ ماذا حاولت أن تفعل، وماذا حققت في تلك البلاد التي امتلكت فيها الفرصة لتتحقق؟

لقد أرادت اشتراكية القرن التاسع عشر المتمثلة في اشتراكية ماركس والعديد من الأشكال الأخرى لها أن تخلق القاعدة المادية التي توفر وجود إنساني كريم لكل إنسان. لقد أرادت التحكم في رأس المال بدلا من أن يتحكم رأس المال في العمل. لم تر الاشتراكية رأس المال والعمل على أنهما مجرد موضوعين اقتصاديين، ولكنهما بدلا من ذلك يعبران عن مبدئين: فرأس المال يعبر عن مبدأ التكديس أو الامتلاك، أما العمل فيعبر عن مبدأ الحياة وقوى الإنسان، أو بتعبير آخر الوجود والماهية. لقد رأى الاشتراكيون أن الأشياء في ظل النظام الرأسمالي توجه الحياة، وأن الامتلاك له أولوية على الوجود، وأن الماضي يوجِّه الحاضر، وأرادوا عكس تلك العلاقة. لقد كان هدف الاشتراكية تحرير الإنسان واستعادة فردانيته غير المغتربة وغير العاجزة والتي تدخله في علاقة جديدة وغنية تلقائية بينه وبين أخيه الإنسان وبينه وبين الطبيعة. لقد هدفت الاشتراكية إلى تمكين الإنسان من تحطيم كل القيود الخيالية غير الواقعية

التي كبلته، والعمل على تحويله لكائن حي قادر على استغلال قواه وشعوره وتفكيره بشكل مبتكر.

لقد أرادت الاشتراكية أن تجعل الإنسان مستقلا يقف على قدميه الخاصة، وكما عبر ماركس عن ذلك حين قال: "يدين بوجوده لنفسه فقط. إن استطاع تأكيد فردانيته كإنسان كامل في كل من علاقاته مع العالم؛ في الرؤية والسمع والشم والتذوق والشعور والتفكير والإرادة والحب. باختصار إن أكد وعبر عن كل مكونات فردانيته". لقد كان هدف الاشتراكية هو الوحدة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وبين الإنسان والطبيعة.

على النقيض تمامًا من الأكلاشيهات المعروفة عن أن ماركس واشتراكيون آخرون قالوا إن الرغبة في أكبر قدر من المكسب المادي تعد الحافز الإنساني الرئيسي، فهؤلاء الاشتراكيون آمنوا أن بنية المجتمع الرأسمالي هي ما تجعل المصالح المادية دوافع عميقة، وأن الاشتراكية سوف تسمح لحوافز أخرى غير مادية لتؤكد نفسها ولتحرر الإنسان من عبوديته للمصالح المادية. إنه موقف مؤسف على قدرة الإنسان على التناقض، ففي الوقت الذي يعيب فيه الناس على الاشتراكية ماديتها الظاهرة، فإنهم ينتقدونها بدعوة أن الربح هو الحافز الوحيد الذي يستطيع أن يحرك الإنسان ليفعل أفضل ما عنده!

لقد هدفت الاشتراكية إلى تأكيد الفردانية لا التطابق، وتحرير الإنسان من القيود الاقتصادية، لا أن تجعل الأهداف المادية الاهتمام الأكبر في الحياة. أرادت تأكيد التكافل بين كل البشر لا السيطرة لأحد على آخر. لقد كان مبدأ الاشتراكية أن كل إنسان هو هدف في حد ذاته لا يمكن أن يصبح وسيلة لشخص آخر لتحقيق أي مآرب. أراد الاشتراكيون خلق مجتمعًا يشارك فيه كل مواطن بفاعلية ومسئولية في اتخاذ كافة القرارات، ومشاركته تنبع من أنه شخصًا لا شيئًا لديه قناعات راسخة لا مجرد آراء مصطنعة.

ترى الاشتراكية أن الفقر ليس وحده رذيلة، ولكن الثراء أيضًا. يحرم الفقر المادي الإنسان من القواعد التي تضمن له حياة إنسانية كريمة، أما الثراء المادي فهو كالقوة يفسد الإنسان. إنه يدمر إحساس التوازن عنده، والإحساس بتلك الحدود الفطرية في الوجود الإنساني. إنه يخلق إحساسًا لا واقعيًا بل قد يصل إلى الجنون بتميُّز الفرد، جاعلا إياه يشعر أنه لا يخضع لنفس الظروف الأساسية للوجود كبقية البشر. لقد أرادت الاشتراكية الراحة المادية للإنسان لتستخدمها من أجل الأهداف الحقيقية في الحياة. إنها ترفض الثروة الفردية لخطورتها على المجتمع كما الفرد. في الحقيقة فإن معارضتها للرأسمالية تعود إلى ذلك المبدأ. تهدف الرأسمالية إلى تزايد الثروة المادية إلى ما لا نهاية، بينما تهدف الاشتراكية إلى زيادة الإنتاجية الإنسانية، والشعور بالحياة والسعادة والراحة المادية

يصل فقط إلى الدرجة التي يستطيع فيها أن يحقق تلك الأهداف الإنسانية. لقد أملت الاشتراكية في الإلغاء النهائي للدولة[33]، لأن الأشياء فقط هي ما يجب أن تُدار لا البشر. لقد هدفت إلى مجتمع لا طبقي تُسترد فيه الحرية والفردانية للفرد. إن الاشتراكية منذ القرن التاسع عشر وحتى بداية الحرب العالمية الأولى مثَّلت أهم حركة إنسانية روحية في أوروبا وأمريكا.

لكن ماذا حدث للاشتراكية؟

لقد استسلمت الاشتراكية لروح الرأسمالية والتي أرادت أصلا أن تحل محلها. بدلا أن يتم استيعابها كحركة تهدف إلى تحرير الإنسان، فإن العديد من أنصارها وأعدائها على السواء رأوها كحركة أنشئت خصيصًا لتحسين اقتصاد الطبقة العاملة. نُسيت الأهداف الإنسانية للاشتراكية أو تم تأييدها بالشفاه فقط، بينما أكدت الرأسمالية على احترام المكسب الاقتصادي. وكما فقدت نماذج الديمقراطية جذورها الروحية، فإن فكرة الاشتراكية هي الأخرى فقدت جذورها العميقة النابعة من الإيمان النبوي المسياني بالسلام والعدالة وأخوة البشر.

هكذا أصبحت الاشتراكية مجرد وسيلة بالنسبة للعمال تمكنهم من اكتساب مكانة خلال البناء الرأسمالي بدلا من

---

33 تتضح هذه الفكرة بوضوح في الأناركية. (المترجم)

السمو عليه. بدلا من تغيير الرأسمالية امتصت الاشتراكية روحها. فشلت الحركة الاشتراكية كاملا عندما رفض زعماؤها في 1914 التضامن الدولي واختاروا المصالح الاقتصادية والعسكرية لبلادهم بدلا من النزعة العالمية والسلام التي شكلت برنامجهم الأصلي.

إن إساءة تفسير الاشتراكية واختزالها في مجرد حركة اقتصادية تهدف فقط إلى تأميم وسائل الإنتاج حدث في الجناحين الأيمن والأيسر للحركة الاشتراكية. لقد اعتبر المصلحون الاشتراكيون في البلدان الأوروبية أن هدفهم الرئيسي رفع الحالة الاقتصادية للعامل من خلال النظام الرأسمالي، واعتبروا أن أحد أشد إجراءاتهم هو تأميم الصناعات الكبيرة. أدرك الكثيرون مؤخرًا أن تأميم مؤسسة ما في حد ذاته لا يعبر عن الاشتراكية نفسها، فإدارة المؤسسة من خلال بيروقراطية عمالية لا يختلف كثيرًا عن إداراتها بواسطة بيروقراطية خاصة.

لقد فسَّر زعماء الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي الاشتراكية بنفس الشكل الاقتصادي البحت. لكن العيش في بلاد أقل تطورًا من غرب أوروبا بلا تقاليد ديمقراطية جعلهم يطبقون الإرهاب والديكتاتورية لإجبار البلاد على زيادة رأس المال بالسرعة التي حدثت في أوروبا في القرن التاسع عشر. لقد طوروا شكلا جديدًا من رأسمالية الدولة والتي أثبتت نجاحها اقتصاديا، وتدميريتها إنسانيًّا. لقد خلقوا مجتمعًا يُدار بشكل

بيروقراطي يكون فيه التمييز الطبقي – بالمعنى الاقتصادي – أشد عمقًا وصرامة من أي مجتمع رأسمالي، وتمثِّل فيه سلطة إصدار الأوامر للآخرين الأساس. لقد أطلقوا على نظامهم "الاشتراكي" لأنهم قاموا بتأميم الاقتصاد بأكمله، في الوقت الذي ينكر فيه نظامهم في الحقيقة كل ما ناضلت الاشتراكية من أجله، كالتأكيد على الفردانية والتطوير الكامل للإنسان. من أجل كسب دعم كتلة الجماهير والتي كان عليها القيام بتضحيات لا محتملة من أجل ذلك التكديس السريع لرأس المال، استخدموا أيدولوجيات اشتراكية بعد أن أضفوا عليها مسحة من القومية، مما أكسبهم تعاونًا بلا حماس من جانب المحكومين.

حتى تلك اللحظة فإن نظام المؤسسات الحر يعد أفضل من النظام الشيوعي؛ لأنه حفظ واحدة من أهم منجزات الإنسان المعاصر وهي الحرية السياسية، يصاحبها الاحترام لكرامة وفردانية الإنسان والتي تربط بيننا جميعًا بالتقليد الروحي الأساسي للإنسانية. إنه يترك مساحة للنقد وعرض الاقتراحات من أجل تغيير اجتماعي بناء والذي يعد بشكل عملي مستحيلا في الدولة البوليسية السوفيتية. أتوقع أنه في اللحظة التي تستطيع فيها الدول السوفيتية الوصول إلى نفس المستوى من التطوير الاقتصادي الذي وصلت له غرب أوروبا وأمريكا، وعندما يستطيعون إشباع طلبهم من أجل حياة مريحة، فإنهم لن يعودوا بحاجة إلى الإرهاب، ولكنهم سيكونوا

قادرين على أن يستخدموا نفس طرق التلاعب التي تستخدم في الغرب، كالعرض واللاإقناع. سوف يتسبب هذا التطور في تسهيل التقاء رأسمالية القرن العشرين وشيوعية القرن العشرين. فكلا النظامين قائم على التصنيع وغايتهما الزيادة الدائمة للفعالية الاقتصادية والثروة. هما مجتمعان تديرهما فئة إدارية وسياسيون محنكون. كلا النظامين يشتركان في تبنيهما للرؤية المادية بصورة محكمة بغض النظر عن ادعائهما المرجعية الكاذبة للأيدولوجيا المسيحية في الغرب والوعود الخلاصية الدنيوية في الشرق. كلاهما يعمل على تنظيم الجماهير في أنظمة مركزية ومصانع عملاقة وأحزاب سياسية. في كلا النظامين – إن سارا في نفس المسار - فإننا نجد إنسانًا يعمل كترس في آلة مغتربًا يتم إطعامه وكسوته وتدريبه بشكل جيد ليصبح إنسانًا آليًّا يُدار بواسطة بيروقراطيين ليست لديهم أهداف أكثر مما لديه هو شخصيًّا، والذي سوف يحل محل إنسان مبدع مفكر حساس. سوف تحتل الأشياء المرتبة الأولى، وسيموت الإنسان وسيظل يتحدث عن الحرية والفردانية في الوقت الذي سيكون فيه نكرة.. لا شيء.

أين نحن اليوم؟

لقد قادت الرأسمالية والاشتراكية المبتذلة المشوهة الإنسان إلى تلك المرحلة التي يواجه فيها خطر تحوله إلى إنسان آلي فاقدًا للإنسانية. إنه يفقد الآن صحته العقلية ويقف عند

مرحلة التدمير الذاتي الكلي. لن يستطيع إنقاذه من ذلك الفساد المؤكد وفقدان الحرية أو الدمار إلا وعيه الكامل بموقفه ومخاطره، وأيضًا رؤية جديدة للحياة تمكنه من تحقيق أهداف حريته الإنسانية وكرامته وإبداعه والمنطق والعدالة والتكافل الإنساني. ليس علينا أن نختار بين نظام المؤسسات الحرة الإداري وبين النظام الشيوعي الإداري. هناك حل ثالث، يتمثل في الاشتراكية الإنسانية الديمقراطية القائمة على المبادئ الأصيلة للاشتراكية التي تعرض لنا رؤية مجتمع إنساني حقيقي جديد.

الاشتراكية الإنسانية

بناء على تحليلنا العام للرأسمالية والشيوعية والاشتراكية الإنسانية، فإن البرنامج الاشتراكي عليه أن يميز بين ثلاثة مظاهر: ما هي المبادئ التي تكمن خلف فكرة حزب اشتراكي؟ ما هي الأهداف المتوسطة للاشتراكية الإنسانية من أجل تحقيق ما يعمل من أجله؟ ما هي الأهداف القريبة المدى لكل عمل اشتراكي في الوقت الذي لم تتحقق فيه الأهداف المتوسطة المدى؟

ما هي المبادئ التي تكمن خلف فكرة الاشتراكية الإنسانية؟ إن كل نظام اجتماعي واقتصادي لا ينظم فقط العلاقات بين الأشياء والمؤسسات، ولكنه ينظم أيضًا العلاقات البشرية. يجب فحص أي مفهوم أو ممارسة اشتراكية في ضوء نوع العلاقات البشرية التي يكون مناسب لها.

إن الإنسان هو القيمة الأعلى في كل الترتيبات الاجتماعية والاقتصادية. هدف المجتمع يتلخص في توفير الظروف من أجل التطوير الكامل لإمكانات الإنسان ومنطقه وحبه وإبداعه. يجب أن تعمل كل الترتيبات الاجتماعية على أن تؤدي إلى التغلب على الغربة وتعجيز الإنسان، لتُمكِّنه من تحقيق حريته الحقيقية واستقلاليته. هدف الاشتراكية هنا هو ذلك الترافق

والاتحاد الذي يمكن فيه تحقيق التطور الكامل في كل ناحية فيه لتحقيق التطور الكامل لكافة الجوانب.

نستطيع القول بأن الهدف الرئيسي للاشتراكية هو أولوية الإنسان على الأشياء، والحياة على الملكية، ومن ثم العمل على رأس المال. فالقوة يجب أن تتبع الإبداع لا الملكية، ويجب ألا يُدار الإنسان بواسطة الظروف، بل يجب أن يتحكم الإنسان فيها.

في العلاقات بين البشر يجب أن يكون كل إنسان غاية في حد ذاته لا مجرد وسيلة لغاية إنسان آخر. يتبع هذا المبدأ إذن أنه لا يمكن أن يصبح أي إنسان خاضعًا بشكل شخصي لإنسان آخر فقط لأنه يمتلك رأس مال.

تنغرس الاشتراكية الإنسانية في القناعة بوحدة الجنس البشري والتكافل بين البشر. إنها تعمل على محاربة أي نوع من عبودية الدولة أو الأمة أو الطبقة الاجتماعية، فيجب أن يكون الولاء الأعلى للإنسان هو ولاؤه للجنس البشري ذاته وللمبادئ الأخلاقية للإنسانية. إنها تكافح من أجل بعث الحياة في تلك الأفكار والقيم التي بُنيت الحضارة الغربية عليها.

إن الاشتراكية الإنسانية تعارض بشكل أساسي الحرب والعنف بكل أشكالهما. إنها تعتبر أن أي محاولة لحل مشكلة سياسية أو اجتماعية بالقوة والعنف ليس فقط مجرد أمر غير مجدٍ، لكن أيضًا غير أخلاقي وغير إنساني، ومن ثم تعارض بقوة

أية سياسة تحاول أن تحقق الأمن عبر التسلح. إنها تعتبر السلام يتمثل ليس فقط في غياب الحرب، ولكنه مبدأ إيجابي في العلاقات الإنسانية يرتكز على التعاون الحر بين كل البشر من أجل الصالح العام.

كنتيجة لتلك المبادئ الاشتراكية فإنه ليس على كل عضو في المجتمع أن يشعر بالمسئولية تجاه بقية المواطنين فقط، ولكن تجاه كل مواطني العالم. إن الظلم والإجحاف الذي يترك ثلثي الجنس البشري يعيشون في فقر مدقع يجب أن يُزال بجهود أبعد مما تفعله الأمم الغنية حتى اليوم لمساعدة البلدان غير النامية حتى تصل إلى مستوى اقتصادي مُرضٍ للإنسان.

تناضل الاشتراكية الإنسانية من أجل الحرية. تناضل من أجل التحرر من الخوف، والحاجة والقمع والعنف. لكن التحرر لا يكون فقط من شيء ما، ولكن أيضًا لأجل شيء ما، كالحرية في المشاركة بفعالية ومسئولية في كل القرارات المتعلقة بالمواطن، والحرية في تطوير إمكانيات الفرد الإنساني حتى أقصى درجة ممكنة.

يجب أن يخضع الإنتاج والاستهلاك لاحتياجات التطور الإنساني لا العكس. كنتيجة طبيعية لهذا يجب أن يُدار الإنتاج طبقًا لمبدأ الفائدة الاجتماعية، لا لصالح الفائدة المادية لبعض الأفراد أو المؤسسات. من ثم وجب علينا الاختيار بين الإنتاج

من ناحية، ومن ناحية أخرى الحرية العظمى والنمو الإنساني، فإن القيمة الإنسانية لا القيمة المادية هي ما يجب علينا اختيارها.

طبقًا للاشتراكية في مجال التصنيع، فليس الهدف تحقيق الإنتاجية الاقتصادية القصوى؛ لكنه تحقيق الإنتاجية الإنسانية المثلى. هذا يعني أن الوسائل التي يستهلك فيها الإنسان معظم طاقته سواء في العمل أو أوقات الترفيه يجب أن تحمل مغزى وتكون ممتعة له. يجب عليها أن تحفزه وتعمل على تطوير كل قواه العقلية والعاطفية والفنية على السواء.

في الوقت الذي يجب فيه تحقيق إشباع الحاجات المادية الأساسية، يجب على الاستهلاك ألا يصبح هدفًا في حد ذاته. كل محاولات استثارة احتياجات الإنسان بشكل مزيف لمصلحة الربح يجب أن تُمنع فورًا. إن إهدار المصادر المادية والاستهلاك العبثي لصالح الاستهلاك هو شيء مدمر للتطور الإنساني الناضج.

تمثل الاشتراكية الإنسانية نظامًا يستطيع فيه الإنسان إدارة رأس المال وليس العكس، مما يمكنه بقدر المستطاع من أن يتحكم في ظروفه. في هذا النظام يستطيع أفراد المجتمع تخطيط ما يودون إنتاجه بدلا من أن يتبع الإنتاج قوانين قوى السوق ورأس المال المجردة بنزعتهما الفطرية لتحقيق أقصى ربح.

تعد الاشتراكية الإنسانية امتدادًا للعملية الديمقراطية المنضوية خلف المجال السياسي المحض وأيضًا الاقتصادي، أي أنها الديمقراطية السياسية والصناعية. إنها تشكل عودة الديمقراطية السياسية لمعناها الأصلي الذي تتمثل في المشاركة الحقة للمواطنين الواعين في صناعة كل القرارات التي تؤثر عليهم.

يعني امتداد الديمقراطية إلى المجال الاقتصادي السيطرة الديمقراطية على كل الأنشطة الاقتصادية عن طريق جميع المشاركين في العملية الديمقراطية سواء كانوا عاملين يدويين أو مهندسين أو مديرين... إلخ. لا تهتم الاشتراكية الإنسانية في الأساس بالملكية القانونية، بل بالسيطرة الاجتماعية على الصناعات الكبرى والفعَّالة. إن السيطرة غير المسئولة للإدارات البيروقراطية، والتي تعبر عن المصلحة والربح المادي يجب استبدالها بالإدارة التي تمثل الناس، وأن تُدار بواسطة أولئك الذين ينتجون ويستهلكون.

يمكن أن يتحقق هدف الاشتراكية الإنسانية فقط بتحقيق أقصى قدر من اللامركزية، التي تنسجم مع أقل قدر ممكن من السيطرة المركزية الضرورية لإدارة العمل في المجتمع الصناعي. يجب تقليل الوظائف التي تعمل على الإدارة المركزية للدولة حتى أدنى حد ممكن، في الوقت الذي تشكل فيه

الأنشطة التطوعية الحرة للمواطنين المتعاونين الآلية الكبرى في الحياة الاجتماعية.

في الوقت الذي تتشابه فيه الأهداف الرئيسية للاشتراكية الإنسانية في كافة الدول، يجب أن تُشكِّل كل دولة أهدافها الخاصة، والتي تتفق مع تقاليدها وموقفها الحالي، وأن تبتكر أساليبها الخاصة لتحقيق ذلك الهدف. إن التماسك المشترك بين البلدان الاشتراكية يجب أن يستبعد أي محاولة من جانب أي دولة تفرض وسائلها الخاصة على دولة أخرى. بنفس الروح يجب ألا تتحول كتابات آباء الاشتراكية الأوائل إلى كتب مقدسة لتستخدم من قبل البعض للسيطرة على الآخرين. إن الروح الشائعة بين الجميع يجب أن تحيا في قلوب الاشتراكيين وأن تقوم بإرشاد تفكيرهم.

تعد الاشتراكية الإنسانية نتيجة منطقية وإرادية للطبيعة الإنسانية الموجودة في ظروف معقولة. إنها تمثل تحقيق الديمقراطية التي لها جذورها في التقليد الإنساني للبشرية في ظل ظروف المجتمع الصناعي. إنها نظام اجتماعي يعمل دون قوة سواء كانت فيزيائية أو قوة أشبه بالتنويم المغناطيسي للاقتراحات التي يُجبر الإنسان عليها دون أن يكون على وعي بذلك، وتتحقق فقط عندما تروق لعقل الإنسان ولاشتياقه لحياة لها معنى غنية وأكثر إنسانية. إنها تتأسس على الإيمان بقدرة الإنسان على بناء عالم إنساني بالحقيقة، يكون فيه

إثراء الحياة وكشف كل تجليات الفرد هما الأهداف الأساسية في المجتمع، بينما ينكمش الاقتصاد إلى دوره الطبيعي كوسيلة لحياة إنسانية أكثر ثراء.

في نقاشنا حول أهداف الاشتراكية الإنسانية يجب أن نُفرِّق بين أمرين: الأول هو الهدف الاجتماعي النهائي لمجتمع قائم على التعاون الحر لمواطنيه وتقليل نشاط الدولة المركزي حتى أقل قدر ممكن، وبين الأهداف الاجتماعية المتوسطة قبل بلوغ الهدف النهائي. إن عملية التحول من الوضع المركزي الحالي للدولة إلى مجتمع لا مركزي بشكل كامل لا يمكن تحقيقها دون فترة مؤقتة من التخطيط المركزي وتدخل الدولة اللذان لا غنى عنهما في تلك الفترة. لكن من أجل تجنب خطر ما يمكن أن يؤدي إليه التخطيط المركزي وتدخل الدولة مثل ازدياد عملية البيروقراطية وإضعاف الكمال الفردي والمبادرة، فإنه من الضروري أن نقوم الآتي:

1- يجب أن تخضع الدولة لمراقبة فعَّالة من مواطنيها.
2- يجب تحطيم القوى الاجتماعية والسياسية للمؤسسات الكبرى.
3- يجب من البداية تعزيز كل أشكال اللامركزية والمشاركة التطوعية في الإنتاج والتجارة والأنشطة المحلية الاجتماعية والثقافية.

بينما لا نستطيع اليوم وضع خطط صلبة وتفصيلية لتحقيق الأهداف النهائية للاشتراكية، فإننا يمكن أن نشكل الأهداف المتوسطة للمجتمع الاشتراكي بأنماط تجريبية. لكن يجب أن نعي أنه حتى مع اهتمامنا بتلك الأهداف المتوسطة فإن الأمر سيستغرق منا عدة سنوات من الدراسة والتجريب لنصل إلى إطار أكثر تأكيدًا وتحديدًا، ويجب تكريس أفضل عقول وقلوب الأمة من أجل تلك الدراسات.

باتباع المبدأ الذي يقضي بأن السيطرة الاجتماعية لا الملكية الشرعية هو المبدأ الرئيسي للاشتراكية، فإن الهدف الأول سوف يكون تحويل كافة المؤسسات الكبرى إلى ذلك الشكل الذي يسمح بتعيين ومراقبة كافة مديريها بشكل كامل بواسطة المشاركين في تلك المؤسسات، سواء كانوا من العمال أو الموظفين أو المهندسين، وبمشاركة نقابة العمال ومندوبين عن المستهلك. تشكل هذه المجموعات السلطة الأعلى لأي مؤسسة كبرى. يقومون بتقرير كل المسائل الأساسية بالنسبة للإنتاج والأسعار واستغلال الأرباح... إلخ. وسيستمر حاملو الأسهم في تلقي تعويض مناسب من أجل استخدام رأس المال الخاص بهم، ولكنهم لا يملكون الحق في التحكم أو السيطرة في عملية الإدارة نفسها.

يمكن تقييد استقلال كل مؤسسة بواسطة التخطيط المركزي إلى الحد الضروري بضمان أن يخدم الإنتاج الغايات

الاجتماعية. يجب أن تعمل المؤسسات الصغرى على أساس تعاوني، وأن يتم تشجيعها عن طريق الضرائب ووسائل أخرى. طالما يعملون على أساس تعاوني يجب على المساهمين أن يشاركوا المالك بشكل متساو في الأرباح وإدارة المؤسسة.

إن بعض الصناعات التي تحتل الأهمية الكبرى لأي مجتمع مثل البترول والبنوك والتليفزيون والراديو والعقاقير الطبية والمواصلات يجب تأميمها، ولكن إدارة تلك المؤسسات المؤممة يجب أن تتبع نفس مبادئ السيطرة الفعالة بواسطة المساهمين والنقابات والمستهلكين.

يجب أن يدير المجتمع مؤسساته ماليًّا بما يخدم احتياجه في كل المجالات التي لها حاجة اجتماعية ولكنها لا تنتج إنتاجًا كافيًا.

يجب أن يتم حماية الفرد من الخوف والحاجة للخضوع لقسر فرد آخر. من أجل تحقيق ذلك الهدف يجب على المجتمع أن يكفل الحرية للجميع، والحد الأدنى من الاحتياجات الضرورية للوجود المادي من الطعام والإسكان والملبس مجانًا لكل فرد. أي فرد يحمل طموحات أعلى من الراحة المادية يجب أن يعمل من أجل تحقيق ذلك، ولكن يجب ضمان الحد الأدنى من الاحتياجات المادية للجميع، ولا يمكن أن يسيطر أحد على شخص آخر عن طريق إجبار ماديٍّ بشكل مباشر أو غير مباشر.

إن الاشتراكية لا تلغي الملكية الفردية ولا تتطلب المساواة في الدخل، فإن الدخل يجب أن يتناسب مع المجهود والمهارة. لكن الاختلافات بين الدخول لا يجب أن تخلق مثل تلك الأنماط المختلفة من الحياة المادية التي لا يستطيع المرء مشاركتها مع الآخرين، وبهذا يصبح مغتربًا عن غيره.

يجب أن يتزود مبدأ الديمقراطية السياسية بما يناسب واقع القرن العشرين. إذا وضعنا في الاعتبار أدواتنا التقنية الخاصة بالاتصالات والجدولة فمن الممكن أن نعيد تقديم مبدأ اجتماع المدينة إلى مجتمعنا المعاصر. يجب أن ندرس ونختبر تلك الوسائل التي ستتيح لنا فعل هذا!. من الممكن أن يتكون ذلك التشكيل من مئات الألوف من اجتماعات المجموعات الصغيرة وجهًا لوجه (ويُنَظم هذا حسب مبدأ مكان العمل والإقامة) مما سيشكل نوعًا جديدًا وقاعدة عريضة من المشاركة في اتخاذ القرارات مع البرلمان المركزي المنتخب. يجب أن تناضل النزعة اللامركزية في وضع قرارات مهمة في أيدي سكان المناطق الصغيرة، والتي ما زالت تخضع للمبادئ الأساسية التي تدير حياة المجتمع كله. بغض النظر عن الأشكال التي سنوجدها فإن المبدأ الرئيسي يظل متمحورًا حول عملية تحويل العملية الديمقراطية إلى ذلك الشكل الذي نستطيع أن نجد فيه مواطنين على وعي جيد ومحل المسئولية، وليس أولئك

الرجال المُميكنين الذين يتم التحكم فيهم بواسطة العديد من وسائل الإجراءات التنويمية تدَّعي التعبير عن إرادتهم[34].

يجب تحطيم البيروقراطية لاستعادة الحرية لا فقط في مجال القرارات السياسية ولكن بشان كل القرارات والترتيبات المختلفة. بعيدًا عن القرارات التي تأتي من أعلى، فإن النشاط في كل مجالات الحياة على مستوى القاعدة الأساسية يجب أن يتم تطويره مما يمكن من توجيه القرار من أسفل إلى أعلى. يجب أن يظل العمال المنتظمون في نقابات والمستهلكون المنتظمون في منظمات المستهلكين والمواطنين المنتظمون في الاجتماعات التي ذكرناها سابقًا وجهًا لوجه في تلك الوحدات السياسية في تبادل دائم مع السلطة المركزية. هذا التبادل سيؤدي إلى تشكيل إجراءات وقوانين جديدة، ويجب أن تُقترح استعدادات مسبقة. بعد التصويت تُتخذ القرارات من القاعدة الأساسية وأن يخضع كل الممثلين المنتخبين إلى تقييم مستمر وإعادة التصويت إن لزم الأمر.

34 إن انتقاد النظام الديمقراطي البرلماني فكرة مشتركة بين بعض المفكرين مثل جارودي مثلا، الذي يرى أنها ديمقراطية الطبقة البورجوازية حينما تصارعت مع الملك على السلطة، ولكن الديمقراطية بالمعنى الحق الذي يتيح للشعب فعلا القدرة على التغيير والحكم لا يمكن أن يقتصر على اختيار المواطن لنائب لا يتغير إلا كل عدة أعوام دون أن يستطيع المواطن أن يراقب أداءه عن كثب، ودون توفر المعلومات اللازمة للمواطن العادي التي تمكنه من اتخاذ قرارات حقيقية؛ لذا يشير فروم وجارودي إلى النزعة اللا مركزية التي توفر للمواطن العادي الفرصة في المشاركة في القرارات الحيوية. إن غالبية القرارات المؤثرة سياسيًا واقتصاديًا في كثير من الدول لا يمكن للمواطن أن يؤثر فيها بأي شكل في الوضع الحالي. (المترجم)

طبقًا لمبادئها الأساسية فإن الهدف من الاشتراكية هو إلغاء السيادة القومية وإلغاء أي نوع من القوات المسلحة وتأسيس اتحاد للأمم.

في مجال التعليم فإن الأهداف الرئيسية هي المساعدة في تطوير القوى النقدية داخل الفرد وتوفير أساس التعبير الإبداعي عن شخصيته، بتعبير آخر: تشكيل رجال أحرار محصنين ضد القولبة واستغلال قدرتهم على الاقتراح من أجل متعة وربح الآخرين. لا يجب أن تكون المعرفة عبارة عن كمية من المعلومات ولكنها تلك الوسيلة العقلانية للفهم وتلك القوى الكامنة التي تحدد العمليات المادية والإنسانية. يجب أن يحتضن التعليم الفنون بالإضافة إلى المنطق. كما أنتجت الرأسمالية الاغتراب فإنها حقرت من قيمة كل من تفهم الإنسان العلمي وإدراكه الجمالي. يهدف التعليم الاشتراكي إلى استعادة الإنسان كاملا وإلى ممارسة كل من تفهمه العلمي وإدراكه الجمالي بشكل حر. يسعى إلى أن يجعل الانسان ليس مجرد مشاهدًا ذكيًا، لكن مشاركًا مجهزًا بشكل جيد، وهذا لا يحدث في عملية إنتاج البضائع المادية فقط، لكن في الاستمتاع بالحياة أيضًا. من أجل موازنة خطر الاستذهان الاغترابي يجب الإمداد بتعليمات واقعية ونظرية بالتدريب على العمل اليدوي والفنون الإبداعية، والجمع بين الاثنين في العمل الحرفي (إنتاج الأشياء المفيدة في الفن) في التعليم الابتدائي

والثانوي. يجب على كل مراهق أن تكون لديه الخبرة في إنتاج شيئًا ما قيمًا بيديه ومهاراته الخاصة.

يجب استبدال مبدأ السلطة اللاعقلانية التي ترتكز على القوة والاستغلال، ولا يحدث هذا بنزعة الحرية المطلقة ولكن بتلك السلطة التي تقوم على كفاءة المعرفة والمهارات لا على التخويف أو القوة أو الإيحاء. يجب على التعليم الاشتراكي أن يصل إلى مفهوم جديد حول السلطة العقلانية التي تختلف عن كل من السلطة اللاعقلانية وعن تلك الحرية التي لا تحمل أي مبدأ.

لا يجب أن يقتصر التعليم على مرحلتي الطفولة والمراهقة، لكن يجب أيضًا توسيع الأشكال السائدة في تعليم المراهقين بشكل كبير. من المهم بشكل خاص منح كل شخص إمكانية تغيير وظيفته أو مهنته في أي وقت من الحياة. وسيكون هذا ممكنًا اقتصاديًّا إن اهتممنا بالحد الأدنى بالاحتياجات المادية له من قبل المجتمع.

لا يجب أن تقتصر الأنشطة الثقافية على توفير التعليم العقلي. تمثل كل أشكال التعبير الفني كالموسيقى والرقص والدراما والرسم والنحت والعمارة.. إلخ أهمية عظمى في تطوير الإنسان. يجب على المجتمع أن يُعِدَّ وسائل مهمة لخلق برنامج ضخم من الأنشطة الفنية المفيدة، إضافة للبرامج الجميلة التي تتبنى الشخصية، حتى وإن كانت على نفقة الآخرين، وحتى

إن كانت أقل أهمية من ناحية إشباع المستهلك. يجب توجيه اهتمام كبير بصدد صون سلامة الفنان المبدع، لتفادي تحويل الفن المسئول اجتماعيًّا إلى فن بيروقراطي أو حكومي. يجب حفظ التوازن بين دعاوى الفنان الشرعية بشأن المجتمع، وبين دعاوى المجتمع بشأن الفنان. تسعى الاشتراكية لتضييق الفجوة بين المنتج والمستهلك في عالم الفن، وتسعى لإزالة ذلك التمييز بشكل جوهري بقدر الإمكان عن طريق توفير الظروف المثلى لازدهار إمكانات الفرد الإبداعية. لكنها لا تعمل على تعطيل أي إطار تصور استباقي وتعرف أن هذه مشكلة تتطلب المزيد من الدراسات أكثر مما أُنجز حتى الآن.

تعد المساواة الكاملة بين الأجناس البشرية والعرقية أمرًا طبيعيًّا بالنسبة للمجتمع الاشتراكي، ومع ذلك فهي لا تعني التطابق، ويجب بذل كل الجهد من أجل السماح بأكبر قدر من تطوير المواهب الخاصة بكل مجموعة قومية أو عرقية بالإضافة لجنسي الرجل والمرأة.

يجب ضمان حرية النشاط الديني مع الفصل الكامل بين الدولة والكنيسة. هذا البرنامج السابق معني بخدمة وإرشاد الناس إلى المبادئ والأهداف الخاصة بالاشتراكية. يتطلب تشكيله البنائي وتفاصيله قدرًا عظيمًا من المناقشة. يقع عبء إعداد وإدارة هذه المناقشات على كاهل الحزب الاشتراكي كأحد مهامه الأساسية. تتطلب مناقشة من هذا النمط فحص كل

البيانات التي تستطيع التجربة العملية والعلوم الاجتماعية توفيرها. لكن قبل كل شيء يتطلب هذا مخيلة وشجاعة لرؤية احتماليات جديدة بدلا من طريقة التفكير البالية.

بعيدًا قليلا عن هذا سنستغرق وقتًا ليس هينًا حتى تقتنع الغالبية من الناس بالولايات المتحدة بصحة المبادئ والأهداف الاشتراكية. فما مهمة الحزب الاشتراكي إذن في هذا الوقت قبل النجاح في تلك المهمة؟

يجب أن يشتمل الـ(SP-SDF) (الحزب الاشتراكي – الاتحاد الديمقراطي الاجتماعي) في بنائه الخاص وأنشطته على المبادئ التي يناضل من أجلها. ليس عليه فقط أن يناضل من أجل تحقيق الاشتراكية في المستقبل؛ لكن أيضًا البدء في تحقيقها في الواقع الحالي بشكل فوري. لذلك عليه ألا يحاول إقناع الناس ببرنامجه بالتوجه إلى عواطفهم اللاعقلانية وبالإيحاءات التنويمية أو الشخصيات الجذابة، لكن عليه التوجه إلى الواقع والإتقان والتغلغل في تحليل الموقف الاقتصادي والاجتماعي والسياسي والإنساني. يجب على الحزب الاشتراكي أن يصبح الضمير الأخلاقي والعقلي للولايات المتحدة، وأن يكشف عن تحليلاته وأحكامه على أكبر نطاق ممكن.

يجب أن تتبع أنشطة الحزب مبادئه الخاصة بالنزعة اللامركزية حتى أقصى حد ممكن، وأيضًا المشاركة النشطة والفعالة لأعضائه في المناقشات واتخاذ القرارات. يجب أن يُوجِّه

اهتمامه الكامل لتوفير الكشف الكامل عن آراء الأقليات. لا يمكن أن يصبح البرنامج الاشتراكي خطة محددة بل يجب عليه أن ينمو ويتطور عبر النشاط المتواصل والجهد والاهتمام المبذول من جانب أعضاء الحزب.

بهذا يجب أن يختلف الحزب الاشتراكي عن الأحزاب السياسية الأخرى، ولا يكون هذا فقط في برنامجه ومُثله، لكن أيضًا في البناء نفسه وطريقة الإدارة. يجب عليه أن يصبح الملاذ الروحي والاجتماعي لأعضائه المتحدين في روح الواقعية وصحة العقل الإنسانية، وبالتكافل والاهتمام المشترك والإيمان العام بالإنسان ومستقبله.

على الحزب الاشتراكي أن يعمل على تطوير حملة تعليمية موسَّعة بين العمال والطلبة والمحترفين وأعضاء كل الطبقات الاجتماعية المتوقع منهم أن يستوعبوا بشكل معقول النقد الاشتراكي والمثل الاشتراكية.

ليس على الحزب أن يتوقع النصر في مدة زمنية قصيرة، ولكن هذا لا يعني أنه لا يجب عليه أن يهدف إلى التأثير الاجتماعي والقوة بشكل واسع. يجب عليه أن يكافح من أجل كسب ولاء أعداد متزايدة من الناس الذين يستطيعون أن يجعلوا أصواتهم مسموعة في الولايات المتحدة والعالم كله عن طريق الحزب .

ينغرس الحزب الاشتراكي بقوة في التقليد الإنساني للاشتراكية، وهو يكافح من أجل تحويل تلك الأهداف الاشتراكية التقليدية لتناسب ظروف مجتمع القرن العشرين من أجل تحقيقها على أرض الواقع. بشكل محدد فإنه يرفض فكرة أن يحقق أهدافه بالقوة أو بإقامة أي نوع من أنواع الديكتاتورية. سلاحه الوحيدة هو واقعية أفكاره، وحقيقة أنها تناسب احتياجات الإنسان، وأيضًا الولاء الحماسي الذي سوف يقدمه المواطنين الذين ملأت الأوهام والضلالات عقولهم، لكن لديهم إيمان في حياة أغنى وأكمل.

لا يكفي أن يؤمن أعضاء الحزب الاشتراكي بمثال أعلى مشترك، فإيمان من هذا النوع يصبح فارغًا وعقيمًا إن لم يُترجم إلى فعل. يجب تنظيم حياة الحزب بتلك الطريقة التي تقدم احتمالية واسعة ومتنوعة لكل عضو أن يترجم اهتمامه الخاص إلى فعل فوري ذي معنى. كيف يمكن تحقيق ذلك؟

يجب علينا أن نفهم بوضوح أن الأهداف الأساسية الاشتراكية، وخاصة أسلوب الإدارة للمؤسسات الضخمة عبر المشاركين فيها وممثلي اتحادات المستهلكين، وبعث روح الحياة في العملية الديمقراطية، وضمان الحد الأدنى للمعيشة لكل مواطن، تُشكِّل مشكلات من الصعب حلها. يتطلب هذا الحل بحثًا أساسيًا نظريًا في مجالات الاقتصاد وإدارة الأعمال وعلم النفس... إلخ. إضافة لهذا يتطلب خططًا عملية وتجريب. وإن

تعاملنا مع تلك المشاكل الاجتماعية بنفس روح الإيمان والمخيلة التي تتواجد بين العلماء والتقنيين الطبيعيين، فسوف نستطيع إيجاد الحلول والتي إذا نظرنا إليها طبقًا للموقف الراهن فقد تبدو رائعة بقدر ما بدا لنا السفر في الفضاء منذ عشرين عامًا مضت. حتى الآن لم تصبح صعوبات الوصول إلى حل لإقامة مجتمع اجتماعي إنساني سوى أهم من مجالات العلوم النظرية والطبيعية التطبيقية.

المهمة الأولى إذن للاشتراكيين هي دراسة مشاكل الاشتراكية التطبيقية في هذا المجال من النشاط، ومناقشة تجارب واقتراحات الحلول الاشتراكية في الوحدات العاملة للحزب الاشتراكي. يجب إلحاق لجان دائمة بنشاط هذه المجموعات من أجل البحث في تلك المشاكل. سوف تتكون تلك اللجان من خبراء في مجالات مختلفة كالاقتصاد وعلم الاجتماع وعلم النفس والسياسة الخارجية.. إلخ. ستعمل تلك اللجان البحثية مع الوحدات العاملة في اتصال وثيق، ويتم تبادل الأفكار والخبرات، وبهذا يحفز كل منهما الآخر.

لا يجب أن تقتصر أنشطة أعضاء الحزب الاشتراكي على التفكير المتجدد أو التخطيط. يجب اتخاذ إجراء ضروري فوري بهذا الصدد. من المهم جدًّا أن يعبر كل عضو عن طريقة الحياة الاشتراكية في عمله أينما كان سواء كان في المصانع أو المكاتب أو المدارس أو المعامل والمستشفيات.. إلخ. يجب أن يعبر كل عضو

عن الطريقة الاشتراكية في التعامل مع المشاكل بأسلوبه الخاص وبتحفيز الآخرين. من المهم بشكل خاص أن يعمل أعضاء الحزب الاشتراكي الذين هم أعضاء في الاتحاد من أجل نشاط مساهمة أكبر للعضو في مجال الاتحادات التجارية. سيعمل أعضاء الحزب الاشتراكي على دعم كل نزعات اللا مركزية، والمشاركة الفعالة العميقة الجذور ومحاربة كل أشكال البيروقراطية سواء كات داخل أو خارج الاتحادات العمالية.

يرغب الحزب الاشتراكي في اجتذاب أولئك الرجال والنساء الذين هم مهتمون بصدق بمشكلة أنسنة المجتمع، والذين أيضًا - بدافع هذا الاهتمام - يعملون من أجله ويرغبون في التضحية بالوقت والمال اللذين يتطلبهما هذا العمل.

بالرغم من أن الحزب الاشتراكي له أهداف رئيسية، فإنه سوف يشارك بفعالية في مساندة الأهداف السياسية العاجلة، والتي تحمل من الأهمية ما يعمل على التطور المتزايد لمجتمعنا. سوف يتعاون مع كل المجموعات السياسية الأخرى والأفراد الذين يكافحون بصدق من أجل نفس الأهداف. من بين تلك الأهداف نستطيع أن نذكر بشكل خاص الآتي:

- سياسة خارجية سوية ترتكز على التقدير الواقعي للحقائق المطروحة في الحياة السياسية. إنها سياسة تبحث عن تسوية مسئولة وتدرك أن الحرب يمكن تجنبها فقط إن تقبلت القوتين العظمتين وضعهما

الاقتصادي والسياسي الحالي وأعلنا تخلهما عن أي محاولة لتغيير ذلك بالقوة.

- محاربة تلك الفكرة التي تعلن أننا نستطيع توفير أمننا بالتسلح. إن الطريقة الوحيدة لتفادي الدمار الشامل هي نزع السلاح الشامل. بالتالي هذا يتضمن ألا تعمل مفاوضات نزع السلاح على منع نزع السلاح الحقيقي، لكن يجب أن نكون على استعداد لتحمل المخاطر في المحاولة لتحقيق ذلك.
- برنامجًا اقتصاديًا يتوجه بالمساعدة إلى البلدان النامية ويكون على نطاق أكبر كثيرًا من البرنامج الحالي، ما يتضمن تضحية كبيرة تقع على كاهل مواطنينا لتحقيق ذلك البرنامج. نحن ندافع عن تلك السياسة التي لا تخدم مصالح استثمارات رءوس الأموال الأمريكية في الخارج والتي لا تقحم سياسة الولايات المتحدة الخارجية بالتدخل بشكل غير مباشر ضد استقلالية البلدان الصغيرة.
- دعم الأمم المتحدة وكافة جهودها لاستخدام مساعدتها في حل النزاعات الدولية وتقديم المساعدة على نطاق واسع.
- دعم كل الإجراءات التي تعمل على رفع مستوى المعيشة للسكان الذين ما زالوا يعيشون في مستوى مادي أقل من الغالبية، هذا ينطبق على الفقر

المتسببة فيه عوامل الاقتصادية أو عوامل أخرى إقليمية وعرقية.

- مساندة كل الجهود من أجل تحقيق اللا مركزية في كافة أنشطة الناس. يتضمن هذا بالتالي دعم كل المحاولات التي تهدف لكبح القوى غير المسئولة في البيروقراطيات المؤسسية والحكومية والاتحادية.
- دعم كل إجراءات الأمن الاجتماعي والتي تهدف للنجدة الفورية للأوضاع الخطرة التي تنتج عن البطالة والمرض وتقدم العمر. دعم كل الإجراءات التي تسير في اتجاه العلاج الاشتراكي مع تَفهُّم أن الاختيار الحر للأطباء والمستوى العلاجي العالي للخدمة يجب تدعيمه.
- إجراءات اقتصادية تؤدي إلى الاستخدام الكامل لقدرتنا الإنتاجية الزراعية وفائضنا الإنتاجي قوميًّا ودوليًّا.
- دعم كل الإجراءات لإقامة لجنة اقتصادية تتكون من ممثلي الصناعة والتجارة والاتحادات التجارية والاقتصاديين وممثلي المستهلك. يجب على تلك اللجنة أن تهتم بتعهد فحص منتظم لكافة الاحتياجات لاقتصادنا وتطوير خطط شاملة من أجل التغيير لصالح الأمة بأكملها. أما عن مهمتها العاجلة فسوف تكون مناقشة واقتراح خطط من أجل التغيير من حالة

الإنتاج الحربي إلى الإنتاج السلمي. يجب طباعة تقارير تلك اللجنة بما فيها تقارير الأقلية ونشرها على نطاق واسع. يجب دعوة لجان مماثلة في مجال السياسة الخارجية والثقافة والتعليم للاجتماع، ويجب أن يمثل أعضاء تلك اللجان قطاعات واسعة من السكان، وأن تتكون من رجال مشهود لمعرفتهم ونزاهتهم بشكل عام.

- إنفاق مبالغ ضخمة على قطاع الإسكان وبناء الطرق وتأسيس المستشفيات وأيضًا من أجل الأنشطة الثقافية كالموسيقى والمسرح والرقص والفن.
- بالثروات الممنوحة للولايات المتحدة نستطيع أن نبدأ في إجراء التجارب اجتماعيًّا. تُنظِّم المؤسسات التي تمتلكها الدولة على أساس أن تجربة المشاركة العمالية في الإدارة بأشكال مختلفة.
- يجب على الحكومة أن تنظم المؤسسات المهمة في مجال الصناعات التي تحتل أهمية اجتماعية أساسية، والتي تتنافس مع الصناعة الخاصة وبهذا الشكل تستطيع الحكومة إجبار الصناعة الخاصة على رفع معاييرها. يجب أن يحدث ذلك أولا في مجال الراديو والتليفزيون والسينما، وفي مجالات أخرى إن توفرت الرغبة في ذلك.
- يجب بذل الجهود من أجل البدء في برنامج مشاركة عمالية في إدارة المؤسسات الكبرى. يجب تخصيص

25% من الأصوات الخاصة بصناعة القرار للعمال والموظفين المنتخبين بحرية في كل مؤسسة.

- يجب تقوية تأثير الاتحادات ليس فقط في المشاكل الخاصة بالأجور ولكن أيضًا فيما يخص تأثيرها على ظروف العمل.. إلخ. وتلقائيًا يجب تدعيم عملية الديمقراطية في كل الاتحادات بكل الطاقة الممكنة.
- يجب دعم كل المحاولات التي تهدف إلى الحد من الإيحاءات التنويمية في الدعايا التجارية والسياسية.

نحن على وعي بأن البرنامج السابق يخص فقط البلدان الصناعية مثل شمال أمريكا وأوروبا. وبالنسبة للدول الأخرى يجب أن يختلف البرنامج طبقًا لظروفها المحددة. مع ذلك فإن المبادئ العامة التي تكمن خلف هذا البرنامج الخاصة بالإنتاج من أجل الاستخدام الاجتماعي وتقوية عملية تفعيل الديمقراطية صناعيًا وسياسيًا صالحة لكل البلدان.

نناشد كل مواطن أن يشعر بمسئوليته في الحياة ومسئوليته تجاه أطفاله وكامل أسرته. إن الإنسان الآن يقف على حافة أكثر الاختيارات حسمًا وخطورة في كامل حياته فإما أن يستخدم مهارته وذهنه من أجل خلق عالم إن لم يكن كالجنة فعلى الأقل مكانًا يصلح لتحقيق كافة إمكانيات الإنسان: عالم من الفرح والإبداع، أو عالم يدمر نفسه بالقنابل الذرية أو عن طريق الملل والخواء.

تختلف الاشتراكية بالفعل عن برنامج أي حزب آخر برؤية خاصة ومثال يتطلع إلى الأفضل ومجتمع أكثر إنسانية من مجتمعنا الحالي. لا تهدف الاشتراكية فقط إلى تحسين نقائص الرأسمالية، بل إنها تهدف إلى تحقيق شيء ما غير موجود بعد؛ تهدف إلى السمو عن واقعنا التجريبي الاجتماعي السائد الذي يرتكز على الاحتمالية الواقعية. لدى الاشتراكيين رؤية ويقولون: "هذا ما نوده.. هذا ما نكافح من أجله. إن هذا ليس الشكل النهائي المطلق للحياة، لكنه أفضل كثيرًا.. إنه شكل للحياة أكثر إنسانية. إنه يمثل تحقيق المثل الإنسانية التي ألهمت الإنجازات العظيمة للثقافة الغربية والشرقية".

سيقول الكثيرون إن الناس لا ترغب بالمُثل ولا يرغبون في الذهاب خلف الإطار المرجعي الذي عاشوا فيه. أما نحن الاشتراكيون نقول أن هذا ليس حقيقيًّا، على العكس فإن البشر يملكون اشتياقًا عميقًا لأجل شيء ما يستطيعون العمل من أجله والإيمان به. تعتمد كافة حيوية الإنسان على حقيقة أنه يود أن يسمو على الدور الروتيني الخاص بوجوده، وأنه يناضل من أجل تحقيق رؤية غير مستحيل تحقيقها، مع أن هذا لم يتحقق حتى الآن. إن لم يكن لديه أية فرصة للكفاح من أجل رؤية عقلانية إنسانية فسينتهي به الأمر لأن يصبح منهكًا مكتئبًا من ملل حياته، وسيسقط فريسة لرؤى أخرى لا عقلانية شيطانية خاصة بالطغاة والديماجوجيين. إنه ضعف المجتمع المعاصر الذي لا يقدم أي مثل أو إيمان ولا يملك رؤية

سوى المزيد من تلك الرؤى السابق ذكرها. نحن الاشتراكيون لا نشعر بالخزي للاعتراف بأننا لدينا إيمان عميق بالإنسان وبرؤية إنسانية جديدة للمجتمع. نناشد إيمان وأمل ومخيلة مواطنينا كي يصحبوننا في تلك الرؤية وفي محاولة تحقيقها. إن الاشتراكية ليست فقط برنامجًا اقتصاديًّا اجتماعيًّا وبرنامجًا سياسيًا، ولكنه أيضًا برنامج إنساني يسعى لتحقيق المثل الإنسانية في ظروف مجتمعنا الصناعي الحالي.

يجب على الاشتراكية أن تكون أصيلة، ومن أجل أن تكون أصيلة يجب أن تذهب إلى الجذور، والجذر هو الإنسان.



المظاهر النفسية لكفالة الدخل

تركز هذه الورقة البحثية على الجوانب النفسية لكفالة الدخل، وقيمتها ومخاطرها والمشاكل البشرية التي تثيرها.

إن أهم سبب لقبول هذا المفهوم هو أنه قد يعزِّز بقوة من حرية الفرد. على مدار التاريخ الإنساني وحتى الآن ظلت حرية الإنسان مقيدة بعاملين: استخدام القوة من قبل الحُكّام – خاصة قدرتهم على قتل المنشقين – والأكثر أهمية من ذلك التهديد بالجوع لكل من لم يقبلوا ظروف العمل والوجود الاجتماعي المفروضة عليهم.

أيًّا كانت شخصية من لم يقبل هذه الظروف حتى وإن لم تكن هناك قوة أخرى مستخدمة ضده، فقد كان معرضًا لتهديد الموت جوعًا. المبدأ الذي ساد معظم التاريخ البشري، في الماضي والحاضر - في الرأسمالية كما الاتحاد السوفيتي – هو: من لا يعمل لا يأكل. أجبر هذا التهديد الإنسان على أن يتصرف طبقًا لما يُؤمر به، وأيضًا أن يفكر ويشعر بطريقة لا تحثه على التصرف بشكل مختلف.

تعود حقيقة أن التاريخ الماضي قائم على مبدأ التهديد بالجوع في تحليلها الأخير إلى حقيقة أنه باستثناء بعض المجتمعات البدائية، فقد عاش الإنسان على الكفاف، اقتصاديًّا ونفسيًّا. لم

تكن هناك سلع كافية لتشبع احتياجات الجميع، وعادة فإن مجموعة صغيرة من "القادة" استولوا على كل ما ترغب فيه انفسهم، بينما أخبروا غالبية الناس الذين لم يستطيعوا الجلوس على طاولة بسيطة، أن قانون الله أو قانون الطبيعة يحتِّم ذلك. لكن يجب الوضع في الاعتبار أن العامل الرئيسي في ذلك لم يكن طمع القادة، لكنه المستوى المنخفض من الإنتاجية المادية[35].

يمكن لكفالة الدخل الممكنة في فترة الوفرة الاقتصادية أن تحرر الإنسان لأول مرة من تهديد الموت جوعًا، وهكذا تجعله حرًّا ومستقلًّا عن أي تهديد اقتصادي. لن يكون أي فرد مضطرًّا لأن يقبل ظروف العمل لخوفه من الموت جوعًا. يمكن لرجل أو امرأة ماهرين أو طموحين أن يتعلما مهارات جديدة ليعدا أنفسهما لنوع جديد من الوظائف. يمكن للزوجة أن تهجر زوجها، والمراهق أن يترك أسرته. سيتعلم الناس ألا يخافوا بعد الآن طالما لا يخشون الجوع. يظل هذا حقيقيًّا فقط إن لم يكن هناك أيضًا تهديد سياسي يكبح الفكر الإنساني الحر، أو حرية التحدث والفعل.

إن كفالة الدخل لن تؤسس فقط للحرية كواقع أكثر من كونه مجرد شعار، لكنها ستؤسس أيضًا مبدأ مغروسا بعمق في

---

35 بالرغم من عدم كفاية الإنتاج إلا أني لا يمكنني قبول هذه النظرة، فلم تتوزع الموارد بشكل عادل أبدًا. (المترجم)

التقليد الغربي الديني والإنساني وهو: للإنسان الحق أن يعيش.. بغض النظر عن أي شيء! هذا الحق في الحياة.. في الحصول على طعام.. في الحصول على مأوى ورعاية طبية وتعليم... إلخ، هو حق إنساني أصيل لا يمكن حده بأي شرط، ولا حتى أن يتوجب على الإنسان أن يكون مفيدًا اجتماعيًّا.

يُعد الانتقال من علم نفس الندرة إلى علم نفس الوفرة واحدًا من أهم الخطوات في تاريخ التطور الإنساني. ينتج علم نفس الندرة القلق والحسد والأنانية (يمكن رؤيتها بقوة في الثقافات الريفية في كل أنحاء العالم). أما علم نفس الوفرة فينتج روح المبادرة والإيمان بالحياة والتكافل. الحقيقة أن غالبية البشر ما زالوا مهيئين نفسيًّا للحقائق الاقتصادية للندرة، بينما يبدأ العالم الصناعي دخوله إلى عصر جديد من الوفرة الاقتصادية. بسبب هذا التأخر النفسي فالكثير من الناس لا يمكنهم حتى فهم أفكار جديدة كالأفكار التي يعرضها مفهوم كفالة الدخل، وذلك بسبب أن الأفكار التقليدية محكومة عادة بالمشاعر التي ظهرت نتاجًا لأشكال سابقة من الوجود الاجتماعي.

هناك أثر آخر لكفالة الدخل المقترن بتقليل ساعات العمل بشكل كبير للجميع. وهذا الأثر سيتمثل في أن المشاكل الروحية والدينية للوجود الإنساني ستصبح حقيقية وضرورية. كان الإنسان مشغولا دائمًا بالعمل – أو مرهقًا بعد العمل –

ليتعامل مع مثل هذه المشاكل بجدية مثل: معنى الحياة، أو: ما هو معنى الحياة؟ بم أؤمن؟ ما هي مبادئي؟ من أنا؟ ... إلخ. إن توقف عن فكرة المشغولية الدائمة بالعمل فإما أنه سيصبح حرًّا في مواجهة هذه المشاكل بجدية، أو أنه سيصبح شبه مجنون من فرط الملل أو من مقاومته.

ينتج عن كافة ما سبق أن الوفرة الاقتصادية والتحرر من تهديد الجوع، ستميزان التحول من مجتمع غير إنساني إلى مجتمع إنساني حقيقي.

من الضروري أن نثير بعض الاعتراضات أو الأسئلة حول مفهوم كفالة الدخل لكي نوازن هذه الصورة. سيكون السؤال الأكثر وضوحًا: ألن تقلل كفالة الدخل من الحافز على العمل؟

بالإضافة إلى حقيقة أنه ليس هناك بالفعل عملا لقطاع متزايد من السكان، من ثم فإن التساؤل عن الباعث لدى هؤلاء الناس أمر غير مناسب، فالاعتراض جاد. مع ذلك أعتقد أن الحافز المادي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون الحافز الوحيد للعمل وبذل الجهد. بادئ ذي بدء، هناك حوافز أخرى: الفخر – التقدير الاجتماعي – السعادة في العمل ذاته... إلخ. لا تنقصنا أمثلة عن تلك الحقيقة. المثل الأكثر وضوحًا سأقتبسه من عمل العلماء والفنانين، الذين لم تكن إنجازاتهم البارزة بدافع من الربح المادي، لكن بمزيج من العوامل المختلفة: أهمها المتعة في العمل الذي يقومون به، وأيضًا

فخرهم بإنجازاتهم أو حتى الرغبة في الشهرة. لكن من الواضح أن هذا المثل ليس مقنعًا بالكامل لأنه يمكن القول إن تلك النوعية البارزة من البشر يمكنها أن تبذل جهودًا عظيمة فقط لأنهم موهوبون بشكل عظيم. من هنا فهم لا يشكلون مثالا على ردود فعل الشخص العادي. لا يبدو أن ذلك الاعتراض صالح إن وضعنا في الاعتبار حوافز أنشطة الناس الذين ليست لديهم الميزات البارزة للمبدعين العظماء.ما هي طبيعة الجهود التي تُبذل في كافة أنواع الرياضات والهوايات حيث يغيب وجود أي دافع مادي على الإطلاق؟ إلى أي مدى يمكن أن يعبر الاهتمام بالعمل ذاته عن الحافز للعمل، مثلما ظهر بوضوح للمرة الأولى من قبل البروفيسور مايو Mayo في دراسته الكلاسيكية الصادرة عن Chicago Hawthorne عن شركة Western Electric Company؟ إن حقيقة أن النساء العاملات المبتدئات قد شاركن في تجربة إنتاجية العمل حيث كانوا موضوع التجربة، وحقيقة أنهن أصبحن يشاركن في التجربة بفعالية.. كل ذلك أدى لزيادة الإنتاجية، وقد حسّن ذلك حتى من صحتهن الجسدية[36].

تصبح المشكلة أكثر وضوحًا عندما نضع في اعتبارنا أشكال المجتمعات القديمة. إن كفاءة واستقامة الخدمة المدنية البروسية التقليدية كانت مشهورة، بالرغم من حقيقة أن

---

36 يصف فروم هذه التجارب بالتفصيل في كتابه الأروع: المجتمع السوي. (المترجم)

المكافآت المالية كانت ضعيفة للغاية. في هذه الحالة كانت مفاهيم: الشرف والولاء والواجب هي الحوافز التي تحدد العمل الكفء. يظهر عامل آخر عندما نأخذ في اعتبارنا أيضًا المجتمعات التي لم تدخل في التصنيع مثل: المجتمع الأوروبي بالعصور الوسطى، أو المجتمعات شبه الإقطاعية في بداية هذا القرن بأمريكا اللاتينية. في كل هذه المجتمعات أراد النجار على سبيل المثال أن يكسب ما يكفيه لسد حاجات مستوى معيشته العادي في ذلك الوقت، وكان سيرفض أن يعمل أكثر من ذلك من أجل ربح المزيد من الأموال التي تفوق احتياجه.

الأمر الثاني هو حقيقة أن الإنسان بطبيعته ليس كسولا، بل على النقيض، فإنه يعاني من آثار الكسل. قد يفضل الناس ألا يعملوا لشهر أو لشهرين، ولكن الغالبية العظمى ستتوسل من أجل العمل حتى لو لم يُدفع لهم نظير ذلك. توفر لنا مجالات تطور الطفل، والمرض العقلي، معلومات وفيرة عن هذه المشكلة، فما نحن بحاجة إليه هو بحث منهجي تكون فيه المعلومات المتاحة منظمة وتحليلية من منظور أن الكسل مرض، وتُجمع المزيد من المعلومات في أبحاث أخرى جديدة ووثيقة الصلة بالموضوع.

مع ذلك، فإن لم يكن المال هو الحافز الرئيسي، فيجب إذن أن يكون العمل من جوانبه التقنية والاجتماعية جذابًا وممتعًا كفاية ليفوق الضيق الناجم عن الكسل. إن الإنسان

المعاصر المغترب يشعر بملل شديد. وغالبًا ما يكون ذلك بشكل غير واع، ومن ثم فلديه توق للكسل أكثر من النشاط. هذا الاشتياق في حد ذاته يشكل عرضًا لمرض الألفة والاعتياد لدينا. ستختفي إساءة استخدام كفالة الدخل المتوقعة بعد مدة قصيرة، تمامًا كما لا يأكل الناس حلويات أكثر من اللازم بعد عدة أسابيع مفترضين أنه ليس عليهم أن يدفعوا ثمنها.

هناك اعتراض آخر: إن وضعنا في الاعتبار أن أولئك الذين يعيشون حياة كريمة من المحتمل أن يخافوا من فقدان وظيفة تمنحهم 15 ألف دولار بالعام، بقدر خوف أولئك من يمكن أن يهلكوا جوعًا إن فقدوا وظائفهم، فهل اختفاء الخوف من الموت جوعًا يحرّر الإنسان فعلا؟ إن كان ذلك الاعتراض صحيحًا فسوف تزيد كفالة الدخل من حرية الغالبية العظمى، ولكن ليس من حرية الطبقات الوسطى والعليا.

كي نفهم هذا الاعتراض كاملا يتوجب علينا أن نضع في الاعتبار روح المجتمع الصناعي المعاصر. لقد حوَّل الإنسان نفسه إلى مستهلك دائم. إنه شره.. سلبي.. يحاول أن يعوض عن خوائه الداخلي بزيادة الاستهلاك دائمًا. وهناك كثير من الأمثلة الطبية عن هذه الآلية في حالات الإفراط في الطعام، والإفراط في الشراء، أو الإفراط في الشرب، كرد فعل للاكتئاب والقلق. إنه يستهلك السجائر والمشروبات الكحولية والجنس والأفلام والسفر، وأيضًا التعليم والكتب والمحاضرات والفن. إنه يبدو

نشطًا، مثارًا جدًّا، ولكنه في أعماق نفسه قلق.. وحيد.. مكتئب، يشعر بالملل. يمكن تعريف الملل كنمط من الاكتئاب المزمن الذي يمكن التعويض عنه بنجاح عن طريق الاستهلاك. إن النزعة الصناعية بالقرن العشرين قد خلقت هذا النمط النفسي الجديد: المستهلك الدائم، وهذا بالأساس نتاج لأسباب اقتصادية؛ بمعنى الحاجة إلى الاستهلاك على نطاق واسع، والتي تحفزها وتؤثر فيها وسائل الدعاية. لكن هذا النمط من الشخصية فور أن يُخلق يؤثر أيضًا على الاقتصاد، ويجعل من مبادئ الإشباع المتزايد تبدو وكأنها أمرًا منطقيًّا وواقعيًّا[37].

إن الإنسان المعاصر لديه جوع هائل لمزيد ومزيد من الاستهلاك. تنتج عن ذلك عدة نتائج: إن لم يكن هناك حد لشره الاستهلاك، وطالما أنه في المستقبل الذي يمكن التكهن به لا يوجد اقتصاد يمكنه أن ينتج الكفاية لاستهلاك بلا حدود للجميع، فلن تظهر إذن وفرة حقيقية أبدًا (على المستوى النفسي)، طالما أن بنية شخصية المستهلك الدائم تظل مسيطرة. من وجهة نظر الشخص الشره هناك دائمًا ندرة طالما

---

37 المشكلة تزداد تعقيدًا عندما نعرف أنه على الأقل 20% من سكان الولايات المتحدة يعانون من نقص المؤن، وكذلك الوضع في بعض أجزاء أوروبا خاصة في البلدان الاشتراكية، والتي لم تصل بعد إلى مستوى مُرض من المعيشة، وأن غالبية البشر القاطنين بأمريكا اللاتينية وآسيا وإفريقيا ما زالوا يعيشون في فقر مدقع. أي جدال بشأن تخفيض الاستهلاك يُواجه بفكرة أن غالبية العالم يحتاج إلى مزيد من الاستهلاك. هذا بالطبع حقيقي ولكن الخطر أنه حتى في البلدان الفقيرة، فسوف توجه فكرة الاستهلاك الأقصى كافة جهودهم، وستشكل أرواحهم.

أنه لا يشعر بالإشباع أبدًا، بغض النظر عن كم ما لديه، علاوة على ذلك فإنه يشعر بالجشع والتنافس تجاه أي فرد آخر، طالما أنه معزول بالأساس ومرتعب. إنه لا يمكنه أن يتمتع حقيقة بالفن أو بأي محفزات ثقافية أخرى طالما أنه يبقى شرهًا. هذا يعني أن أولئك من عاشوا في مستوى كفالة الدخل سيشعرون بالإحباط وعدم التقدير، وأولئك من ربحوا أكثر سيظلوا سجناء للظروف، لأنهم سيشعرون بالخوف وسيفقدون قدرتهم على الحد الأقصى من الاستهلاك. لهذه الأسباب فإني أعتقد أن كفالة الدخل دون تغيير مبدأ الحد الأقصى من الاستهلاك ستهتم فقط بمشاكل اقتصادية واجتماعية معينة، ولكنها لن يكون لديها التأثير الحاسم الذي من المفترض أن يكون لها.

ما الذي يجب أن نفعله إذن حتى نحقق كفالة الدخل؟ بشكل عام يجب علينا تغيير نظام الحد الأقصى للاستهلاك إلى نظام الحد الأمثل. هذا قد يعني تغييرًا واسعًا في الصناعة لتتحول من إنتاج بضائع من أجل الاستهلاك الفردي إلى إنتاج بضائع من أجل الاستخدام العام مثل: المدارس – المسارح – المكتبات – الحدائق – المستشفيات – المواصلات العامة – الإسكان... بتعبير آخر التأكيد على إنتاج تلك الأشياء التي تشكل القواعد التي تكشف عن إنتاجية وفعالية الفرد الداخلية. يمكن توضيح أن جشع المستهلك الدائم يعود بالأساس إلى استهلاك الفرد للأشياء التي يأكلها (يندمج بها)، بينما

الاستفادة من الخدمات العامة المجانية التي تمكّن الفرد من الاستمتاع بالحياة لا تثير بداخله نوازع الشره والجشع. إن تغييرًا من الاستهلاك الأقصى إلى الأمثل سيتطلب بعض التغييرات الجوهرية في أطر الإنتاج، وأيضًا خفض حاد في استثارة الشهوة، وأساليب غسل الدماغ في الدعاية والإعلان... إلخ[38]. وقد يتوجب أيضًا أن يلحق بذلك تغييرًا ثقافيًّا حادًّا... تجدد ونهضة لقيمة الحياة الإنسانية والإنتاجية والفردية.. إلخ، في مواجهة مادية رجل المؤسسات وأكوام النمل المستغلة.

تؤدي هذه الاعتبارات إلى مشاكل أخرى يلزم دراستها: هل هناك معايير موضوعية صالحة للتمييز بين الأمر العقلاني وغير العقلاني؟ بين الاحتياجات الصالحة والطالحة؟ هل هناك أية احتياجات ذاتية لها نفس قيمة تلك المعايير الموضوعية؟ (يُعرف الصالح هنا بالاحتياجات التي تعزز من حيوية الإنسان ويقظته وإنتاجيته وحساسيته، أما الطالح فهو تلك الاحتياجات التي تُضعف أو تعجّز من هذه القدرات البشرية الكامنة). يجب علينا تذكر أنه في حالة إدمان المخدرات والإفراط في تناول الطعام والكحوليات يمكننا جميعًا أن نميز بين تلك الأمور. ستقود دراسة مثل هذه المشاكل إلى تلك الاعتبارات العملية الآتية: ما هو الحد الأدنى لاحتياجات الفرد الأساسية (على

---

38 في رأيي إن الحاجة إلى الحد من الإعلانات، بل وأكثر من ذلك تغيير شكل الإنتاج إلى إنتاج الخدمات العامة من الصعب جدًّا تحقيقه دون تدخل كبير من الدولة.

سبيل المثال غرفة واحدة لكل شخص.. ملابس كثيرة.. سعرات حرارية كثيرة.. كثير من السلع الثقافية المفيدة مثل الراديو والكتب.. إلخ). في مجتمع غني نسبيًّا مثل الولايات المتحدة الأمريكية اليوم؟ يجب أن يكون من السهل أن نحدد ما هي تكلفة الحد الأدنى لمستوى المعيشة اللائق، وأيضًا ما هي الحدود التي يجب أن تكون مفروضة على الحد الأقصى من الاستهلاك. يمكن الوضع في الاعتبار مثلا ضرائب تصاعدية على الاستهلاك الذي يتخطى درجة معينة. يبدو لي أنه من المهم القضاء على نمط المعيشة الموجود بالأحياء الفقيرة. كل ذلك سيعني مزيجًا من مبادئ كفالة الدخل بتحويل مجتمعنا من الاستهلاك الفردي الأقصى إلى الأمثل، وسيعني أيضًا تغييرًا حادًّا من إنتاج الاحتياجات الفردية إلى إنتاج الاحتياجات العامة.

أعتقد أنه من المهم أن أضيف إلى فكرة كفالة الدخل فكرة أخرى يجب أن تُدرس جيدًا، وهي مفهوم الاستهلاك المجاني لبضائع معينة. كمثال على ذلك سنتكلم عن الخبز واللبن والخضراوات. دعنا نفترض للحظة واحدة أن أي إنسان يمكنه أن يذهب إلى أي مخبز ويأخذ ما يريده من الخبز، وستدفع الحكومة للمخبز عن كل إنتاجه للخبز. كما أشرنا من قبل سيأخذ الشره في البداية أكثر مما يحتاج، ولكن بعد مدة قصيرة سينتهي الاستهلاك الشره من ذاته وسيأخذ الناس ما يحتاجونه فعلا. في رأيي سيخلق مثل هذا الاستهلاك الحر بعدًا جديدًا في الحياة الإنسانية إذا لم ننظر له كتكرار على مستوى

أعلى للنموذج الاستهلاكي في بعض المجتمعات البدائية. سيتحرر الإنسان من مبدأ: من لا يعمل لا يأكل. حتى تلك البداية من الاستهلاك الحر يمكنها أن تؤسس تجربة شديدة الجدة من الحرية. من الواضح حتى لغير الاقتصاديين أن توفير الخبز المجاني للجميع يمكن للحكومة أن تدفع تكاليفه بسهولة عن طريق فرض ضريبة موازية. مع ذلك يمكننا أن نخطو خطوة أبعد. إذا افترضنا أنه لم تُكفل فقط الاحتياجات الدنيا من الطعام: خبز مجاني – لبن مجاني – خضراوات – فاكهة، لكن أيضًا أقل حد من الاحتياجات من الملابس عن طريق نظام ما يمكن لأي فرد أن يحصل عليه دون أن يدفع مقابله، ولنقل مثلا بدلة واحدة – ثلاثة قمصان – ستة أزواج من الجوارب... إلخ في كل عام، لنفترض أيضًا مجانية المواصلات العامة، والتي تحتاج بالطبع أنظمة محسنة من المواصلات العامة بينما ستزداد أسعار السيارات الخاصة. في النهاية يمكن للمرء أن يتصور أن مشكلة الإسكان يمكن أن تُحل بنفس الطريقة بمشاريع إسكانية كبيرة، بصالات كبيرة للنوم للشباب وغرفة أخرى صغيرة للأكبر سنًّا أو المتزوجين، يمكن الحصول عليها دون أي تكلفة لأي شخص يختارها. هذا يدفع بي إلى اقتراح أن الاستهلاك الأدنى المجاني لكافة الضروريات هو وسيلة أخرى لحل مشكلة كفالة الدخل بدلا من أن نفكر في الدفع الفوري. إن إنتاج مثل تلك الاحتياجات الدنيا والتحسن

الكبير للخدمات العامة سيجعلان الإنتاج يستمر تمامًا كما كان سيحدث في حالة دفع ثمن كفالة الدخل.

ربما تُثار الاعتراضات بأن هذه الطريقة شديدة التطرف، ومن ثم فهي أقل قبولا من تلك الطريقة التي اقترحها الكتّاب الآخرون. ربما ذلك حقيقي، ولا يجب أن ننسى أن هذه الطريقة من إحدى النواحي للحد الأدنى للخدمات المجانية يمكن تنفيذها نظريًا في هذا النظام الحالي، بينما من جانب آخر فإن فكرة كفالة الدخل لن يقبلها الكثيرون. السبب في ذلك ليس عدم ملاءمتها، لكن بسبب المقاومة النفسية ضد إلغاء مبدأ: من لا يعمل لا يأكل.

ثمة مشكلة فلسفية سياسية نفسية أخرى يجدر بنا دراستها، وهي مشكلة الحرية. إن المفهوم الغربي عن الحرية مبني بشكل كبير على حرية الملكية الخاصة، واستغلالها طالما لا يعمل ذلك على تهديد المصالح الشرعية الأخرى. لقد انهدم ذلك المبدأ بالفعل بطرق كثيرة في الكثير من المجتمعات الصناعية الغربية بسبب الضرائب، والتي هي أحد أشكال نزع الملكية، وبتدخل الدولة في الزراعة والتجارة والصناعة. في الوقت ذاته فإن الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج تحل محلها ملكية نصف عامة مماثلة للمؤسسات العملاقة. في الوقت الذي يعني مفهوم كفالة الدخل المزيد من تدخل الدولة، يجب علينا أن نتذكر أن مفهوم الحرية عند الفرد العادي اليوم لا

يقتصر على حرية أن يمتك ويستغل ممتلكاته (رأس المال) بقدر ما هي حرية استهلاك ما يشاء. اليوم يعتبر كثير من الناس أن تحديد الاستهلاك خرق لحريتهم، مع أن النخبة وحدها لديهاالحرية في اختيار ما تريد. إن التنافس بين الأنواع المختلفة لنفس البضائع، والأنواع المختلفة من البضائع يخلق وهمًا بالحرية الشخصية، بينما يختار الفرد في الواقع ما يُوجّه لاختياره[39]. نحن في حاجة إلى طريقة جديدة لفهم مشكلة الحرية، فمع التحول من المستهلك الدائم إلى الشخصية المنتجة الفعالة سيختبر الإنسان الحرية في الاستقلالية الحقيقية لا في الاختيارات اللا نهائية من البضائع.

يمكن اختبار الأثر الكامل لمبدأ كفالة الدخل فقط مع ارتباطه بكل من:

1- تغيير في عادات الاستهلاك، والتحول من المستهلك الدائم إلى الإنسان المنتج الفعال (على حد تعبير إسبينوزا).
2- خلق نزعة روحية جديدة، وهي النزعة الإنسانية بأشكالها الدينية واللا دينية على السواء.
3- إحياء الوسائل الديمقراطية الحقيقية. على سبيل المثال: مجلس نواب جديد يتخذ القرارات التي تتوصل

39 لقد أعطتنا البيروقراطية الاستبدادية للبلدان السوفيتية مثلا سيئًا أيضًا لأي محاولة لتنظيم الاستهلاك.

إليها مئات الآلاف من المجموعات التي تلتقي وجهًا لوجه، ومشاركة فعالة من كافة الأعضاء الذين يعملون في أي نوع من أنواع المؤسسات والإدارة.. إلخ. والخطر في أن تصبح الدولة التي تطعم الجميع إلهًا ذا سمات ديكتاتورية يمكن التغلب عليه فقط بزيادة كبيرة مستمرة في الإجراءات الديمقراطية في كافة مناحي الأنشطة الاجتماعية. الحقيقة أنه حتى اليوم الدولة قوية بدرجة شديدة دون حتى أن تمنح الناس هذه المميزات.

إيجازًا لما سبق، يجب أن نقوم بأبحاث أخرى نفسية وفلسفية ودينية وتعليمية في نفس الوقت الذي نقوم فيه بإجراء بحث اقتصادي في مجال كفالة الدخل. في رأيي فإن الخطوة الكبيرة صوب كفالة الدخل ستنجح فقط إذا كانت مصحوبة بتغييرات في مجالات أخرى. لا يجب أن ننسى أن كفالة الدخل يمكنها فقط أن تنجح إن توقفنا عن إنفاق 10% من مجموع مواردنا على التسليح الخطير والذي لا يجدي اقتصاديًّا في الوقت نفسه. بإمكاننا وقف انتشار العنف العبثي بمساعدة منتظمة للدول النامية، إذا وجدنا الطرق الملائمة لكبح الانفجار السكاني. دون تغييرات من هذا النوع فلن تنجح أي خطة مستقبلية لأنه لن يكون ثمة مستقبل.

الشيخوخة ومشاكلها النفسية

أحد الأسئلة التي يتوجب علينا أن نجيب عليها عند التطرق للمشاكل النفسية للشيخوخة هي: أيسبب العمر المتقدم حرجًا لصاحبه؟ أهي مرحلة مؤلمة على الطريق يجب أن نُغلِّفها بكل أصناف الكلمات المعسولة؟ أم أنها مجرد مرحلة في الحياة كالمراهقة مثلا أو الطفولة أو الكهولة؟ أليست المشكلة نفس الشيء في كل مراحل الحياة العمرية؛ بمعنى: كيف يمكن أن نعيش جيدًا وكيف نعيش بأكبر قدر من الحيوية في هذه المرحلة الخاصة؟

قد يتحدث المرء جيدًا عن فن الحياة، وقد يقول أن فن معايشة الشيخوخة هو فصل مهم في فن الحياة كفن أن تكون طفلا، ثم بالغًا.

من الواضح أن الشيخوخة هي مشكلة المجتمع الصناعي الحديث. لقد كانت الشيخوخة نادرة جدًّا منذ مائة عام مضت أو حتى من خمسين عامًا؛ فأن تعيش حتى ترى أحفادك أو أحفاد أحفادك كانت أمنية عظيمة وقتها، بينما يصير الأمر اليوم مألوفًا. من الواضح أن الشيخوخة مشكلة قد خلقها المجتمع الصناعي الحديث. إنها في الأساس مشكلة لتقدم الطب، الذي يشكل بدوره جزءًا من التقدم العام في العلوم والتكنولوجيا.

إضافة إلى ذلك ربما حتى نقول أننا يمكن أن نُعرّف الشيخوخة ليس فقط فيما يتعلق بالمصطلحات البيولوجية والنفسية، لكن أيضًا بمصطلحات اجتماعية. فالشيخوخة هي المرحلة التي لا تكون فيها مضطرًا للعمل. عندما يأتي ذلك الوقت، حينما لا تكون فيها مضطرًا أن تعمل مجددًا فهذا يطرح سؤالا على نطاق واسع للمؤسسة الصناعية. يمكننا أن نتصور أنه بزيادة الميكنة فلن يقلل ذلك فقط من ساعات العمل، بل سيقل معدل عمر الإنسان العامل أكثر فأكثر؛ لذا فربما بعد خمسين عامًا فقط من الآن ستبدأ الشيخوخة بعد الأربعين، ولن يكون أحد بحاجة إلى أن يعمل أو تكون حتى لديه فرصة للعمل بعد سن الأربعين باستثناء عدد قليل من الناس.

الآن فنحن من نعيش في المجتمعات الغربية لم نُطِل العمر فقط، بل كنا محظوظين بدرجة كافية لتكون لدينا الوسائل المادية حتى نبجل هذه الحياة الطويلة أيضًا، ونجعلها مريحة أكثر ومقبولة. نعلم جميعًا أن جزءًا كبيرًا من مشكلة التكدس السكاني في العالم تعود إلى حقيقة أن الطب قد قام بدوره، لكن الصناعة لم تخلق الوسائل المادية لتستفيد من منجزات الطب أو لم تتمكن من ذلك. في مثل هذه الحالات فإن عدد السكان يتزايد دون إشباع ملائم للاحتياجات المادية للناس الذين يعيشون الآن عمرًا أطول. في الولايات المتحدة الأمريكية وكافة المجتمعات الصناعية الأخرى بشكل عام لدينا الوسائل، بل إنها تتزايد أكثر فأكثر بشكل لا يجب أن نواجه فيه هذا التناقض.

لقد خلق مجتمعنا الصناعي الحديث مرحلة عمرية جديدة للإنسان، وهي الشيخوخة. يمكن للإنسان الآن أن يجتازها في أمان وسعادة إن لم يخلق المجتمع المعاصر ظواهر أخرى ليست جيدة للشيخوخة، ولديها أثر بالغ عليها. سأتحدث عن بعض هذه المشاكل محاولا أن أربطها جميعًا بمشاكل الشيخوخة.

يخلق مجتمعنا المعاصر نمطًا من الإنسان أطلقت عليه سابقًا: «المستهلك الأبدي» وهو ذلك الإنسان المستهلك الذي له هدف رئيسي بغض النظر عن عمله طوال اليوم.. هذا الهدف هو أن يستهلك.

الأمر يشبه رضاعة مستمرة.. إن ذلك النمط لرجل أو امرأة ذوي فم مفتوح يستهلك كل شيء بنهم.. الخمر.. السجائر.. الأفلام.. التليفزيون.. المحاضرات.. الكتب.. المعروضات الفنية.. الجنس... كل شيء يتحول بالنسبة له إلى سلعة استهلاكية.

قطعًا يرى أولئك من يبيعون تلك السلع أنه لا خطأ في ذلك، بل أنهم يحاولون تحفيز الروح الاستهلاكية بقدر ما يستطيعون، لكن إن حاولت تطبيق بعض من معرفتي الخاصة بمهنتي، فإنه ثمة شيء خاطئ تمامًا في ذلك، لأننا نعلم أنه خلف هذا التحفيز على الاستهلاك ثمة خواء داخلي.. إحساس بعدم الامتلاء. في الواقع هناك إحساس بالاكتئاب، وشعور بالوحدة. يمكننا أن نجد الدلائل الطبية على هذه العلاقة في حقيقة أن الإفراط في الطعام أو الشراء كثيرًا ما يكون نتيجة

لحالات من الاكتئاب أو القلق الشديد. يشعر الفرد بالخواء الداخلي أو العجز، وبتناوله للأشياء يشعر أنه يملأ نفسه بشيء ما يجعله قويًا.

من الطبيعي أن الأمر لا يحدث عبر عملية تفكير واعٍ، فهو ليس قابلا للتفكير فيه، لكنها إحدى تجارب العقل اللا واعي الذي يعوض فيه عن الخواء الداخلي بالاستهلاك؛ الاستهلاك اللا نهائي وغير المحدود.

في الواقع فإن مفهومنا عن الحرية اليوم يعني إلى حد كبير حرية الشراء والاستهلاك، هذا إن لم نُشِر إلى تلك الحرية التي نعبر عنها بمصطلحات سياسية. في القرن التاسع عشر كان المقصود بالحرية: الملكية الخاصة وحرية التصرف فيها بأي شكل يراه صاحبها. أما اليوم فالملكية الخاصة في مجتمعنا تختفي نسبيًا بالمقارنة بالدخل الناجم عن المرتبات. ما نشعر به على أنه حرية هو إلى حد كبير حرية الشراء أو الاستهلاك، بمعنى الاختيار بين أمور كثيرة مختلفة، والقول: "أريد هذه السيجارة.. أريد هذه السيارة. أريد هذه أكثر من تلك". ولأن كثير من العلامات التجارية المتنافسة لا تختلف عن بعضها كثيرًا، يشعر الفرد بقوة عظيمة من الحرية في الاختيار. أعتقد أن كثير من الناس إن كانوا أمناء مع أنفسهم في مفهومهم عن الجنة، فكانوا سيتخيلونها على أنها متجر ضخم للغاية يمكنهم أن يشتروا منه شيئًا جديدًا كل يوم، وربما أكثر من جيرانهم.

هناك قصور في هذا الاتجاه المتعلق بزيادة الاستهلاك، والخطر يتمثل في أن شعور الإنسان بالحاجة إلى الاستهلاك. لا يحل فعلا مشكلة سلبيته وفراغه الداخليين، ولا مشكلة قلقه واكتئابه، لأن الحياة حينها لا يصبح لها أي معنى.

يحذرنا العهد القديم من أن أسوأ خطيئة ارتكبها العبرانيون أنهم عاشوا دون فرحة وسط كثير من الأفراح. يؤسفني أن النقاد بمجتمعنا يقولون إننا نعيش في متعة وإثارة، لكن دون فرحة وسط كثير من الأفراح.

السبب في أني أناقش ذلك في علاقته مع مشاكل الشيخوخة هو أني أخشى من وجود خطر كبير أن يصبح الشيوخ مستهلكين لكل شيء. ربما يصبحون أناسًا لديهم الوقت لا ليستهلكوا فقط طوال يوم العمل، بل أيضًا طوال اليوم بعد العمل، جاعلين من الاستهلاك همهم الرئيسي. ربما يعاملهم الشباب بنوع من اللطف حيث يمكنهم الآن أن يصبحون كسالى تمامًا، يقضون كافة أوقاتهم في محاولة قتل الوقت.

من الغريب أن نبذل جهدًا كبيرًا في توفير الوقت، وعندما نوفره بالفعل نشعر بالارتباك لأننا لا نعلم ماذا يمكننا أن نفعل به، ومن ثم نبدأ في قتل الوقت. تطرح علينا صناعة البهجة طرقًا عديدة تمكننا من قتل الوقت دون أن نشعر، وذلك بجعلنا نستهلك وسائل التسلية المختلفة باقتناع عن وعي بأن ما نفعله له معنى. يبدو لي أنه ثمة خطر يحيط بنا في أن نحوّل

من في سن الشيخوخة بكل ما لديه من إمكانات ووقت فراغ إلى مستهلك لكل شيء، سلبي تمامًا، يقتل وقته بطريقة لائقة كما يرى الخبراء. أعتقد أن ذلك يجلب خزيًا عظيمًا.

في الواقع فإن الشيخوخة تمثل تحديًا كبيرًا وفرصة عظيمة في الوقت ذاته. قد تكون الشيخوخة هي أفضل وقت لدى الإنسان لأنه يتحرر فيها من السعي وراء الرزق ومن قلق فقدانه لوظيفته، بل ويتحرر أيضًا من الحاجة لإرضاء من يعلوه مقامًا حتى يحصل على ترقية ما. إنه حقًّا إنسان حر.. حر بقدر ما نكون أحرارًا أثناء النوم حينما نبدو في أحلامنا شديدي الإبداع أكثر من أي وقت آخر.

الإنسان الذي يبدأ مرحلة الشيخوخة، ودعنا نقول مثلا بعد الخامسة والستين، لديه فرصة حقيقية في أن يعيش، وأن يكون حيًّا، وأن يجعل من الحياة شاغله الرئيسي. بإمكانه أيضًا أن يواجه بصدق مشاكل الحياة الروحية والدينية. أعتقد أنه في التاريخ القديم للإنسانية عادة لم يكن لدى الإنسان طاقة أو وقت متبقٍّ حتى يهتم فعلا بمثل هذه المشاكل.

إن كنت عاملا يدويًّا فستشعر بالإرهاق الشديد، وإن لم تكن عاملا يدويًّا فإن طموحاتك وشكوكك حول نجاحك سيشعرانك بالإرهاق الشديد حتى لا يمكنك أن تفكر كثيرًا في مشاكل الحياة. أحيانًا نتكلم عن هذه المشاكل، وغالبًا يحدث ذلك في أيام الآحاد: ما معنى الحياة؟ من أنا؟ ما هو دوري في

ذلك العالم؟ ما هو الهدف أو الغرض لهذه الحياة؟ هذه نماذج من المشاكل التي قد يستمع إليها الإنسان في عظات أيام الآحاد[40]، لكن عادة في بقية الأيام الأسبوع لا يكون لدى المرء لا الوقت ولا الطاقة ليفكر في مثل تلك الأمور.

في عصر الميكنة القادم، وعندما يكون من المحتمل أن يعمل الإنسان عشرة أو عشرين ساعة فقط بالأسبوع فسيجد الإنسان نفسه للمرة الأولى مضطرًا ليواجه المشاكل الروحية الحقيقية في الحياة.

لدى الشيوخ فرصة لمواجهة أنفسهم بها الآن، ولديهم أيضًا الفرصة في طرح تلك الأسئلة، لا فقط على المستوى النظري ولكن كأمر يهمهم بالفعل. من أنا؟ ما هو هدفي في الحياة؟ ما مغزى هذه الحياة؟ لديهم الفرصة لمواجهة السؤال الذي يشكل جزءًا من فلسفة الحياة، ألا وهو مسألة الموت... الحقيقة المطلقة التي لا يمكن لأحد أن يهرب منها، ورؤية الحياة من منظور أنها تنتهي بالموت.

إن قلت إن الحياة تنتهي بالموت، فأنا أعبر عن أمر ما لن يقبله اليهود والمسيحيون[41]، الذين يؤمنون بحياة بعد الموت،

---

40 يقصد العظة الدينية بالكنيسة في قداس الأحد. (المترجم)

41 من الأمور المثيرة قليلا للتعجب هي عدم تعرض فروم تقريبًا للإسلام في أي من كتبه على الرغم من قراءاته الدينية الواسعة في الأديان الشرقية واليهودية والمسيحية بطبيعة الحال. (المترجم)

ومع ذلك فأنا أعتقد أنهم سيتفقون معي على أمر واحد: حتى إن كان المرء يؤمن بحياة بعد الموت فهي قطعًا ليست جولة سياحية مدفوعة الأجر مسبقًا في بلد أجنبية.. إنها ليست رحلة ترفيهية. الأمر هناك يعتمد كلية على ما نفعله هنا مما يجعل المشاركة في ذلك النوع من الحياة الذي تصفه الأديان المختلفة هناك ممكنًا. لا يهم كثيرًا ما إن كنا نؤمن بعبارات وعقائد دينية معينة عن الحياة بعد الموت أم لا، فسيظل واجبًا علينا أن نتناول مشكلة الموت بجدية وألا نحاول تمويه الأمر أو الهروب منه.

لقد فكرت في المشاكل الأساسية بالحياة بجدية. وسأضع في اعتباري كيف يمكن الإجابة على هذا السؤال. من هو نقيض المستهلك؟ من هو نقيض الشخص الذي يشعر بالخواء واللا فعالية الذي يقضي – أو دعنا نقول يضيّع – حياته بقتل الوقت؟

من الصعب جدًّا أن نصف هذا الشخص ولكنني سأقول إنه بشكل عام، الإجابة الأساسية عن هذا تعني أن تكون مهتمًّا. لسوء الحظ نحن نستخدم هذه الكلمة مرارًا وتكرارًا لدرجة أنها فقدت قدرًا كبيرًا من معناها، والمعنى حسب أصله اللاتيني هو (أن يكون في) بمعنى أن أكون قادرًا على تجاوز الأنا، وأتخطى الحدود الضيقة للأنا بكل طموحاتي وكبريائي وفخري بملكيتي، وبما أعرفه، وأسرتي وزوجتي وزوجي، وكل ما أملك.

إن ذلك يعني أن أنسى كل تلك الأمور لأصل إلى ما هو أمامي وما هو خلفي سواء كان ذلك طفلا أو زهرة أو كتابًا أو فكرة أو إنسانًا أو أيًا كانت ماهيته.

يعني الاهتمام أن أكون فعالا، لكن بالمعنى الأرسطي أو بالمعنى الذي يقصده إسبينوزا، لا بمعنى أن أكون فعالا في عرف مجتمعنا المعاصر حيث يجب على المرء أن يفعل شيئًا طوال الوقت. أي شخص يمكنه أن يجلس لساعة أو اثنتين لا يفعل فيها شيئًا ربما يكون أكثر فعالية بهذا المعنى من غالبيتنا عندما نقوم بشيء ما طوال الوقت، وقطعًا ذلك شديد الصعوبة. إنها مشكلة حقيقية لمن هو في عمر الشيخوخة أن يكون قادرًا على أن يكون فعالا بذلك المعنى الداخلي أكثر من المعنى الخارجي.

لا يمكننا تجاهل مشكلة الفعالية الزائفة. إننا لا نجدها فقط في مجالات الانشغال، لكن في مجال آخر أيضًا يخدع فيه الناس أنفسهم دومًا بشأن فعالية مشاعرهم. سأضرب هنا مثالا عن ذلك قد يبدو بعيدًا، لكني أعتقد أنه يرتبط بالمشكلة التي يجب أن نؤكد عليها. السيد (أ) مُنوَّم مغناطيسيًّا. لنفترض أنها التاسعة صباحًا، يخبره المُنوِّم أنه سوف يخلع معطفه في الثالثة مساءً بعد الظهر، وإن لم يقدموا إليه بعض الإيحاءات الأخرى سينسى أن ذلك قد حدث. دعنا نفترض الآن أنك التقيت السيد (أ) في الثانية والنصف. تتحدث معه عن الطقس

والسياسة وأي موضوع آخر ممتع لك في تلك اللحظة. قبل الثالثة بدقيقة واحدة سيقول السيد (أ) لك: "أليس الطقس اليوم حارًّا بشكل لا يُطاق؟ عليَّ حقًّا أن أخلع معطفي".

إن كان الطقس دافئًا فعلا فستعتقد أن هذا الكلام منطقي، أو لو كان يومًا باردًا جدًّا لكن التدفئة شديدة الحرارة حتى أنك لا تحتملها، فستظل على اعتقادك أن رد فعل السيد (أ) طبيعي جدًّا. مع ذلك فإن كان الطقس اليوم ليس شديد الحرارة، والبناية التي أنت بداخلها ليست دافئة بشكل مُفرط، ستندهش أن السيد (أ) يشعر بأن الطقس شديد الحرارة، وربما تعتقد أنه مصاب بالحمى وتقترح عليه أن يذهب لطبيب. رغم كل ذلك فأنت على قناعة أن السيد (أ) يشعر بالحرارة وأنه في حاجة إلى أن يخلع معطفه. مع ذلك إن كنت قد حضرت في التاسعة صباحًا أثناء جلسة التنويم كنت ستفهم أن شعوره بالحرارة ناجم عن إيحاء التنويم. تظل أمامنا هذه الظاهرة المثيرة، وهي أن السيد (أ) في حاجة لأن يفعل ما يراه منطقيًّا، ببساطة لا يستطيع السيد (أ) أن يخلع معطفه بشكل تلقائي. عليه أن يجد سببًا لذلك. إن لم تكن حاضرًا بالصباح فكنت ستقتنع أنه يشعر حقًّا بالدفء.

هذه مجرد حالة خاصة عما يحدث لنا مرات كثيرة، حتى بدون تنويم مغناطيسي. نحن نعتقد أننا نشعر بشيء ما لا نشعر به حقًّا. يحدث ذلك ببساطة لأننا نتبع الإيحاءات والرأي

العام، وما يشبه ذلك. لذا فعلينا أن نجد سببًا لهذه الأفعال التي تبدو وكأن شعورنا هو الذي حفَّزها. على سبيل المثال إن كنت تنتمي إلى الصفوة الثقافية فربما تشعر أن أعمال بابلو بيكاسو جميلة للغاية وتعبر عن فن عظيم. مع ذلك إن كنت قد تعلمت أن بيكاسو قد أبدع فنًّا جميلا، فستنظر إلى أعماله وتشعر أنها رائعة، لكنك لا تشعر حقًّا بشيء. كل ما يحدث أنك لديك اعتقاد بشعور ما، وأغلب الناس غير قادرين على التمييز تمامًا بين الشعور الأصيل الذي هو حقيقة، يستجيب إلى شيء ما يعمل داخل الجهاز النفسي للشخص، وبين الاعتقاد بشعور ما والذي يشبه شعورًا حقيقيًّا إلا أنه ليس كذلك.

إن حاول شخص ما أن يتتبع حياته الخاصة في مختبره الموجود داخل نفسه، فسيكتشف أنه غالبًا ما تكون لديه قناعة بأنه يشعر بشيء ما: الاهتمام، الحب، الفرح أو أي عواطف أخرى، بينما لديه فقط أفكار عن هذه المشاعر.

مع ذلك فهناك مناسبات كثيرة تكون فيها مشاعر المرء كاذبة، ويرى أنه يُفترض عليه أن يشعر بها بتلقين من الثقافة التي يعيش وسطها، وهناك كثير من المواقف حيث يشعر فيها المرء بما يجب عليه أن يشعر به ولا يمكنه أن يُفرِّق بين المشاعر الحقيقية والزائفة والتي هي في الواقع لا شئ سوى مجرد اعتقاد.

تختلف المشاعر الزائفة بعض الشيء عن الاهتمام الحقيقي والمشاركة الفعَّالة. إن كان يجب أن تكون الحياة ممتعة فعلى المرء أن يشعر بالمتعة، وإن كانت مملة فسيحاول المرء يائسًا أن يقوم بكل المحاولات الممكنة ليتخلص من هذا الملل. بالرغم من حقيقة أنه يوجد حديث عن اللا وعي – عادة ما يؤمن الناس بعقدة أوديب ورغبات سفاح المحارم وكل هذه الأمور – فإني أعتقد أنه ربما لا شيء لدى الناس يُقمع أكثر من مشاعر الملل.

يصل الشعور اللا واعي بالملل في المجتمع المعاصر إلى نسب مروعة، ولم يكن نجاح الراديو والتليفزيون والسلع الاستهلاكية الشبيهة ممكنًا إلا فقط بسبب أن الناس ليست لديهم أي تجارب حقيقية. في مجتمعنا يلقنوننا أن الشعور بعدم الاكتراث عمل غير لائق أو على الأقل يدل على الفشل، فالشخص الناجح يهتم طوال الوقت بشيء ما. بسبب ذلك علينا أن نستبدل الشعور بالملل بالشعور بالإثارة، مع أن هذه الإثارة في الوقع ليست شيئًا سوى فكر يحفزه التلقين بأن مواقف أو أشخاص معينين يُفترض أن يُشعرونا بالإثارة.

من السهل أن نكتشف العلاقة بين ما كنت أقوله عن التسلية والملل، وبين مشاكل من يعيشون في مرحلة الشيخوخة الذين ليس لديهم شيء يشغلون أنفسهم به، بل لديهم أوقات فراغ طويلة.

أحد المظاهر النفسية الأخرى للشيخوخة تتمثل في حقيقة أنه غالبًا ما تظهر شخصية المرء الحقيقية في مرحلة الشيخوخة أكثر من أي وقت مضى عندما كان الإنسان مشغولا، وكان عليه أن يكون لطيفًا وأن يبحث عن وظائف ويحافظ عليها. يعتقد الناس أحيانًا أن الكهل تتدهور حالته آليًا، ولكن ما من تدهور حتمي لا بد له أن يحدث. حتى هذه اللحظة كان عليه أن يظهر في صورة الإنسان المفعم بالحيوية لأن ذلك كان ضروريًا، لكن عندما لم يكن الأمر ضروريًا، كشف حقًّا عن التدهور الذي لحق به.

نعلم جميعًا أن الكثيرين - إن لم يكن أغلبنا في الحياة العملية - يريدون تسليط الضوء على ما يطلق عليه علماء النفس أحيانًا "الشخصية المظهرية"؛ فنريد أن نرسم صورة عن أنفسنا يمكنها أن تتكيف جيدًا مع نوع العمل الذي نقوم به. مع ذلك فإن كان المرء مثلا جراحًا جيدًا، فهو ليس مضطرًا أن يظهر في هذه الصورة لأنه في المقام الأول بالكاد يمكن للمريض أن يرى الجرّاح، والسبب الآخر أنه سعيد جدًّا بالعثور على جراح جيد ولا يبالي ما إن كان يبتسم أم لا. إن كنت عاملا ماهرًا بمصنع صلب فليس من الضروري أن تكون ودودًا جدًّا أيضًا لأن كل ما يهم في الأمر هو مدى مهارتك التي يمكن أن يعتمد عليها زملاؤك في العمل. رغم ذلك ففي أغلب الوظائف والمهن اليوم، وفي مجتمعنا البيروقراطي من المهم جدًّا أن تكون لطيفًا، بل أحيانًا يكون ذلك أكثر أهمية من المهارات التي لديك.

إن كانت لديك المهارة واللطف فبالطبع سيشكل ذلك مصدرًا للقوة، ولكن مظهر اللطف أمر مهم جدًّا.

بالرغم من ذلك فعندما لا تكون مضطرًّا لأن تصبح لطيفًا بعد الآن، فلماذا لا تكون لطيفًا؟ لم لا تشعر أخيرًا بأنه يمكنك الآن أن تكون نفسك؟ هذا لا يعني أن هناك الكثير من الناس غير اللطفاء، لكن هناك قليل منهم بعض الشيء، ومن الخطأ أن نعزو سوء الطبع الموجود في الشيوخ إلى التدهور الذي يحدث لهم بسبب الشيخوخة. في الواقع لأول مرة يجد فيها الكثير من هؤلاء الشيوخ أنفسهم أحرارًا في أن يكونوا أنفسهم.

هذا لا ينطبق فقط على سيئي الطباع منهم، لكن أيضًا على كل العطوفين من البشر. إن كنت عطوفًا جدًّا في العمل فأنت ساذج، وستعي هذا في سلوكيات الناس التي يعبرون عنها في علاقاتهم بك. نتيجة لذلك ستشعر فعلا بالخزي من طيبة قلبك، فمع أنك تتمنى أن تمنح أحدهم بعض البضائع التي لا يمكنه تحمل ثمنها، فربما تجد نفسك مضطرًّا أن تقمع هذا الشعور بداخلك – حتى إن كنت غير واعٍ بذلك – لأنك إن فعلت ذلك – حتى إن كنت تستطيع ذلك – فقد تشرَّبت فكرة أنه لا يجب أن تكون ساذجًا.

بالرغم من كل ذلك فعندما تصل إلى الشيخوخة ربما تشعر بالحرية في أن تكون نفسك الحقيقية بهذا المعنى الإيجابي، لذا

يمكنك أن تصبح أكثر عطفًا وشفقة من الذي كان مسموحًا لك في بعض المواقف الاجتماعية بعينها قبل ذلك.

ما أقصده هو أن الشيخ لديه الفرصة – سواء للأفضل أو للأسوأ – في أن يسمح لنفسه بأن يعيش طبقًا لشخصيته الحقيقية، وغالبًا ما يستخدم هذه الفرصة،أكثر من أن يعيش وفقًا لشخصية وهمية زعم وجودها بداخله عندما أراد أن يمضي قدمًا.

لذا أعتقد أن فهم الأشكال المختلفة لتكوين الشخصية أمر مهم لأي محاولة من أجل الوصول إلى تفهم حقيقي للشيوخ، بقدر أهمية فهم الشباب تمامًا. أقترح أن دراسة الشيوخ يجب أن تعتني بدراسة بنية الشخصية والاختلافات فيها. يمكننا أن نجد اختلافًا كبيرًا في الشخصية بين أولئك من يحبون الحياة ويحيون حقًا، وأولئك من يحبون الموت؛ المرتبطين بالتحلل والفساد، وبكل ما هو غير حي.

كتبت عن ذلك ذات مرة بالتفصيل في كتاب: "جوهر الإنسان" وسأذكر هنا باختصار الفكرة الرئيسية التي كنت أحاول الإشارة إليها. يؤمن معظم الناس أن كل البشر يحبون الحياة. لسوء الحظ الأمر ليس كذلك. هناك قليل من الناس ينجذبون في الأساس إلى التحلل، إلى كل ما هو آلي، إلى كل ما هو غير حي أكثر مما هو حي. استخدمت كلمات مثل نيكروفيليا،

بيوفيليا – حب الموت، حب الحياة في التمييز بين هاتين المجموعتين.

أحيانًا، يمكنك أن ترى مثالا على النمط النيكروفيلي في الأم، التي تشعر بالحيوية عندما تتحدث عن مرض ابنها. إن استمتع ابنها بشيء ما وعاد إلى المنزل مليئًا بالحيوية، بالكاد يمكن للأم أن تلحظ ذلك؛ لكن عندما يمرض الابن تشعر بالاهتمام حقًّا. ربما تجد عذرًا لهذا السلوك لوجود بعض المنطق على الأقل للأم في الاهتمام بصحة ابنها. مع ذلك ستجد كثير من الناس يهتمون أكثر بالمآتم والموت والمرض، وحديثهم المفضل يكون عن تاريخ مرضهم، ويمكنك أن ترى بوضوح أن ذلك يمكنه أن يشغل بال الشيوخ أكثر من الشباب.

عندما نتقدم في العمر نبدأ في دراسة الطب؛ فلدينا مرض واحد ثم يبدأ آخر وسرعان ما نصبح خبراء في مجالات مختلفة، لكن ليس في كثير منها. الآن عندما يرى الشخص النيكروفيلي أنه ربما يتبقى له عشر أو خمسة عشر عامًا ليحيا ثم يموت، يصبح قريبًا جدًّا من جوهره، ويكتشف أنه ليس عليه أن يقمع ميوله النيكروفيلية بعد الآن. الآن يستطيع أن يرتبط بوضوح بالمرض والموت، ولا يصبح فقط مملًّا، لكنه يشكل خطرًا حقيقيًّا على جميع من يحيون حوله؛ لأنه ينشر جوًّا كئيبًا جدًّا. لا يشكل ذلك بالطبع بالنسبة له أية كآبة، بل إن التفكير في المرض والموت يُعد أكثر الأمور إثارة في العالم

بالنسبة له، أما بالنسبة للناس الذين يحبون الحياة فهذا أمر مريع.

إن كنت لا تعرف أنك تتعامل مع ما يمكنك أن تدعوه بالمعنى الصريح "مرضًا" فربما تجد نفسك بسهولة عالقًا في إطار من الكآبة، خاصة إن كنت تشعر بالشفقة نحو هذا الشخص الذي لا يمكنه أن يوقف حديثه عن المرض.

أعتقد أنه إن كان المرء يهتم فعلا بالشيوخ فيجب عليه أن يكون واعيًا بأن هذا الانشغال بالمرض والموت والمآتم ليس نتيجة طبيعية للتقدم في العمر. في أغلب الأحيان يكون تعبيرًا أكثر صراحة أو تجلٍ عن ميول كانت لدى هؤلاء الناس طوال حياتهم.. أعني الشعور بالإثارة من الشيء الوحيد الذي لا يتوجب أن يشعر المرء من جرائه بالإثارة وهو: التحلل.

هناك اتجاه نفسي آخر يرتبط بالشيخوخة يتعلق بالفرق بين الاستقلالية والتبعية. جميعنا مستقلون، ولدينا وظائف، ولم نعد نتلقى المال من والدينا، لكننا أيضًا تابعون. نحن نعتمد على أصحاب العمل وعلى الرأي العام، أو في حالة الأطباء يعتمدون على سعادة مرضاهم. يبقى مع هذا أننا نشعر بالاستقلالية إن كسبنا رزقنا بطريقة أو بأخرى.

لسوء الحظ، ليس من السهل تحقيق الاستقلالية والحرية كما يبدو الأمر. أحد المشاكل الأساسية لتطور الفرد هي ما يمكن أن نطلق عليه باللغة النفسية: مشكلة الفردانية،

فكيف يمكن لأحد أن ينجح في التطور من حالة الجنين داخل الرحم إلى شخص مستقل؟

هذه عملية طويلة بالطبع. من الواضح أنه طالما أننا داخل رحم أمهاتنا فنحن غير مستقلين بالمعنى النفسي الواضح. عندما نولد فنحن مستقلون عضويًا، لكننا لسنا كذلك نفسيًا. في الواقع ربما يقترب وجودنا في الأسابيع القليلة الأولى بعد الميلاد بطريقة ما من حياتنا الجنينية أكثر من حياتنا الراشدة. نحن نعتمد كلية على الأم، ولا نعتبرها شخصًا مغايرًا لنا. نحن مرتبطون تضامنيًا بالأم إن جاز التعبير. ليس هناك فارق بعد بين الأنا والآخر. العالم بأكمله بالنسبة للطفل هو الأنا، وإن انتظرت الأم أية مشاعر حب من طفلها البالغ من العمر أربعة أسابيع فهي تعيش في الأوهام. في الواقع إن انتظرت حبًا أكثر من طفلها البالغ من العمر عامًا فهي أيضًا تُضلِّل نفسها وتواجه مشكلة.

عملية تشكيل الأنا، كشخص منفصل مرتبط بالعالم، يهتم به ولكنه مستقل، يدين بوجوده لنفسه، هي واحدة من الأشكال الرئيسية لتطور الإنسان.

لا يتخطى أبدًا المرضى من البشر هذه المرحلة التضامنية الأولى. يوجد نوع معين من النمط الذهاني من البشر يريد عاطفيًا أن يعيش داخل رحم أمه.. هذا الشخص الذي ما زال يريد أن يظل مرتبطًا عاطفيًا بأم أو شخص يحل محلها.

ستجد الآن أناسًا وصلوا إلى مرحلة حيث يريدون فقط أن يرضعوا من صدور أمهاتهم، أو ستجد آخرين متقدمين عن تلك المرحلة. يودون أن يجلسون في حجر الأم، بل وستجد آخرين تقدموا أيضًا عن تلك المرحلة قليلا يرغبون فقط لو تحملهم أيادي الآباء والأمهات. إن وصل الإنسان إلى نضجه الكامل سيكون حقًّا نفسه، بمعنى أن يكون قادرًا أن يقف على قدميه لأنه مرتبط فعلا بالعالم، ومتصلا به، وذلك لا يحدث عبر أن يكون جزءًا من شخص آخر، باهتمامه الخاص وحبه للعالم الخارجي. يمكنه أن يصبح مستقلا حقًّا لأنه مرتبط بهذا العالم، لكن معظم الناس لا يصلون إلى تلك المرحلة.

يمكنك أن تجد كثير من الناس يتصرفون بشكل جيد اجتماعيًّا واقتصاديًّا، لكنهم ليسوا مستقلين. هذا النقص في الاستقلالية غير ظاهر على السطح، لأنهم يشغلون مواقع تبدو وكأنها شديدة الاستقلالية. هذا حال كثير من رجال الأعمال والمتخصصين الذين يعتمدون على سكرتيراتهم وزوجاتهم، وعلى الرأي العام ومع ذلك يشعرون أنهم مستقلون فعلا.

أود أن أؤكد على نمط الشخصية بالنسبة للمسنين، لأنه كثيرًا جدًّا ما يبدو كما في الحالة الأولى من: النيكروفيليا – البيوفيليا، أن الشيخ يُظهر دلائل قوية على تواكله، ويعتقد الناس أن ذلك يعود ببساطة إلى مرحلة الشيخوخة، بينما هذا الشخص في الواقع ظل طوال الوقت لديه ذلك النمط

المتواكل، والآن فقط يمكنه أن يعبر عن ذلك لأنه كشيخ من المفترض أن يكون متواكلا بعض الشيء. يمكنك أن ترى هنا علمًا كاملا للنفس لنمط معين من الشيوخ الذين يشعرون أنهم بلا قيمة أو في حاجة لشخص ما يحميهم. يمنح العمر المتقدم – كما نراه في ثقافتنا - هذا النمط من الشخصيات فرصة ممتازة وتبريرًا ليظهروا تواكلهم الذي كانوا يتصرفون طبقًا له في عمر الثلاثين أو الأربعين بشكل غير واع، أما الآن فلديهم الفرصة في أن يعبروا عن هذا التواكل كاملا.

أكرر مرة أخرى أن المشكلة هنا ليست في الخضوع لذلك، بل في رؤيتها على حقيقتها بمعنى سمة الشخصية التي كانت دائمًا موجودة، والتي يجب الآن أن نواجهها، أو ربما نعالجها، لكن لا نعتبرها أمرا مرتبطا بالشيخوخة.

هناك ميزات واختلافات شخصية أخرى تكشف أحيانًا عن نفسها في عمر الشيخوخة. على سبيل المثال قد يُظهر أحدهم حسده. كان يمضي قدمًا طوال مدة شبابه، فعالا، وكان يتحكم في حسده بشكل ما أو حتى يقمعه، لأن حسده لا يترك انطباعًا جيدًا عنه. في الواقع كان عليه أن يخفيه إن أراد أن يمضي قدمًا، أو دعنا نقول أنه عليه أن يبدو على النقيض من ذلك.

مع ذلك، فعندما يصل ذلك الشخص إلى مرحلة الشيخوخة يظهر هذا الحسد الذي كان موجودًا بداخله طوال

الوقت، بل ويجد أيضًا مجالات أكثر يظهر فيها. يستطيع مثل هذا الشخص أن يحسد من هم أصغر منه، أو حتى شيوخًا لا يعانون من المرض. المشكلة هنا مجددًا ألا ننخدع بظهور هذا الحسد الذي يتطور بسبب وصول أحدهم إلى مرحلة الشيخوخة، بل أن نعرف على العكس أن هذه السمات الشخصية تظهر الآن لأنها وجدت الفرصة لتعلن عن نفسها بوعي. إن الشخص هو هو لم يتغير.

ربما تتساءل الآن عما يمكن عمله حيال ذلك حتى إن كان تشخيصي النفسي صحيحًا. أعتقد أنه حتى الاعتراف بأن كثيرًا من مظاهر الشخصية التي من المفترض أن تكون مظاهر للمرحلة العمرية لكنها في الحقيقة مظاهر للسمات الشخصية الخفية ولكن كانت دائمًا حاضرة، هي في الواقع بمثابة استجابة ورد فعل الإنسان لهذه السمات الشخصية. ثانيًا أود أن أقول إن الفرصة ما زالت سانحة للشخص الذي تخطى الخامسة والستين كي يتغير. إن درجة أو إمكانية الشخص للتغيير لا تعتمد في المقام الأول على عمره؛ إنها تعتمد على حيويته ومدى قوة رغبته في التغيير، وعلى اهتمامه وعوامل أخرى كثيرة.

لدينا شباب في عمر الواحد والعشرين يمكن أن نقول عنهم دون أن نحاول أن نكون كاملي المعرفة، أنهم لن يتغيروا أبدًا لنقص بعض المقومات بشخصياتهم، وسواء كانوا في عمر

العشرين أو الثلاثين فالأمر سيان فيسظلون على نفس الشخصيات الحمقاء مدى الحياة. لقد رأيت شيوخًا في السبعين من العمر غيَّروا كامل حيواتهم، لأنهم حتى في هذا العمر ظلت لديهم حيوية عظيمة، وفي الواقع قد وجدوا أخيرًا في هذا العمر فرصتهم الأولى ليصنعوا تغييرات حقيقية، واضعين في اعتبارهم نوعية الشخصية التي يرغبون في تمثلها. لا أعتقد أن العمر المتقدم في حد ذاته يشكل عاملا ضروريًا يمنع التغييرات الأساسية في الشخصية.

ما أحاول قوله هنا أنه لا يجب أن ينخدع المرء بسمات شخصية معينة تبدو كما لو أنها نتاج للشيخوخة؛ بينما كانت طوال الوقت جزءًا أصيلا من الشخصية. ويجب أيضًا على المرء ألا يكون شكاكًا بلا داعٍ بشأن إمكانية الشيوخ على التغيير إن كانت لديهم الإرادة والطاقة والحيوية والشجاعة.

بالرغم من كل ذلك، فما يجب أن نتجنبه كما ذكرت سابقًا هو تحويل الشيخ إلى مستهلك كامل، وأن نحوله إلى شخص نستطيع أن نعلمه كيف يقضي وقته بلطف في انتظار الموت. لذا يجب علينا ألا نتنازل أو نتصرف بتسامح حيال أي أمر يخص الشيوخ، على الأقل ليس أكثر أو أقل مما نفعله مع الشباب. لا أعتقد أن التنازل مسموح به في أي وضع. ربما تشعر بالشفقة إن فشل شخص ما في حياته ولم تكن أمامه فرصة لمعالجة هذا الفشل؛ لكننا ربما نتعاطف مع كثير من الناس في عمر الثلاثين

أو الأربعين، والذين بإمكاننا فعلا أن نقول إنهم سيفشلون في حياتهم ولن يكون ثمة علاج أو إصلاح لهم.

هذا لا يشكل جوهر مشكلة الشيخوخة.. إنها مشكلة الوجود الإنساني لكل فرد فينا. أعتقد أنه من المهم جدًّا لنا أن نفكر في مشكلة: كيف يمكننا أن نساعد الشيوخ ليشعروا بمزيد من الفاعلية والاهتمام، ليتجنبوا حياة المستهلك الخامد التي تُقدم لهم.

أعلم أنه ما زال أمامنا قدر كبير من الأبحاث يجب أن نقوم بها في هذا المجال، كما يحدث تمامًا في التعليم بشكل عام. في الواقع فالتعليم وعمر الشيخوخة مجالان غير مختلفين بشكل كبير. كيف يمكنك أن تغير طالبًا شابًّا يقوم فقط بالاستماع إلى المحاضرات بلا مبالاة إلى شخص يهتم بفعالية بما يدرسه؟ نفس المشكلة بالنسبة للشيخ: كيف يمكنك أن تجعله أكثر حيوية مما كان عليه من قبل؟ أعتقد أن البحث في هذا المجال سيسدي خدمة عظيمة لنا. كيف يمكنك أن تثير اهتمامًا أكثر فاعلية؟ أيمكن القيام بذلك عن طريق المناقشة؟ أو القراءة؟ أو باهتمام جديد بالفن أو حتى بالسياسة؟ عندما أشير إلى السياسة فإني لا أعني السياسة بمعنى قراءة الصحف - أيًّا كانت الصحيفة التي تقرأها – واعتقادك بأن ما قرأته جيد، بل بالصحوة، وإصدار الأحكام والنظر إلى الأحداث بعين

ناقدة ورؤية الواقع والشعور بالمسئولية؛ بمعنى الاستجابة لما يحدث حولك.. الاستجابة كإنسان لما يحدث.

كي نوجز ما سبق، نقول إن الشيخ مثل الشاب تمامًا يجب عليه أن يحاول أن يصبح أكثر استجابة للعالم من حوله، وأن يستجيب مثل أن يكون مسئولا. الكلمتان مشتقتان من أصل واحد[42]. يجب على الشيخ أن يتعلم كيف يمكن أن يتحول رد الفعل إعادة ابتكار؛ أي قدرة جديدة على الابتكار، ولا يحتاج لأجل هذا أن يكون رسامًا أو شاعرًا أو لديه أي وظيفة... كل ما يحتاجه أن يكون حيًّا. هذا يعني أن يهتم حقًّا بالعالم من حوله.

---

42 Responsive – Responsible (respondere) to respond.

نظرية واستراتيجية السلام

عندما يتطرق الحديث الآن عن نظرية السلام، فالسؤال الأول الذي يتبادر إلى الذهن: "ما هو السلام؟" فكلمة سلام يمكن أن تُستخدم بمعنيين مختلفين؛ الأول هو نقيض الحرب، والآخر عدم استخدام القوة لتحقيق أهداف معينة، وذلك سيكون تعريفًا بالسلب. مع هذا فطبقًا للتعريف الإيجابي للسلام فهو حالة من التناغم الأخوي بين البشر جميعًا.

فلنتكلم قليلا عن التعريف الثاني. وجد هذا التعريف تعبيره الأول والأكثر أهمية في المفهوم النبوي عن: "العصر المسياني"؛ العصر الذي يعيش فيه الناس في تناغم مع بعضهم البعض، وأيضًا مع الطبيعة، وهو أمر شديد الأهمية. في الحقيقة لا يقتصر الأمر على العيش في حالة من عدم الاعتداء والعنف فقط، ولكن أيضًا في حالة من عدم القلق، لذا فهي حالة يمكن فقط أن يصفها المرء بأنها أقصى درجات تطور الإنسان، كتجلٍّ كامل لمنطقه وقدرته على الحب. لقد استخدمت الكلمة العبرية Shalom بالعهد القديم لتعبر عن السلام، وتعني الكمال والتناغم.

يعتقد الكثيرون حتى الآن في إمكانية تحقيق هذا السلام، ويسمي آخرون كثيرون أنفسهم يوتيبيون[43]. السؤال هو عما يعنيه المرء بكلمة "يوتوبي" فمن يستطيع حقًّا أن يعرِّفها؟ من السهل جدًّا أن تطلق على أحد هذه الكلمة. هناك كثير من الناس يطلقون على أنفسهم "واقعيين"، ببساطة لأن لديهم شعار: "ما لم يحدث لا يمكن أن يحدث!" لقد أثبت التاريخ بشكل كاف أن هذا الشعار خاطئ. إن أمكن أن أعبِّر عن الفكرة مجازيًّا فربما يمكن أن يجعل المرء هذا الشعار على النحو التالي: "كثيرون يؤمنون أن الولادة تحدث في الشهر التاسع لا في الشهر الأول من الحمل". أحب أن أطلق على هؤلاء الواقعيين: "واقعيي الشهر التاسع". في الحقيقة يمكن للمرء أن يختار بين يوتوبيا عقلانية ويوتوبيا لا عقلانية عن طريق تحليل ما أطلق عليه هيجل الإمكانات الحقيقية، وهذا التحليل في الواقع أكثر تعقيدًا من الاعتماد على حالة الوضع الراهن والماضي على السواء.

لم يتوقف بالطبع مفهوم السلام الإيجابي بهذا المعنى عند الأنبياء، بل تواصل جزئيًّا في التاريخ المسيحي، وأيضًا عند الطوائف والحركات الثورية المسيحية. لقد وجد تعبيرًا عنه في شكل علماني في نظرية كارل ماركس. أقصد بذلك نظرية

---

43 أصحاب يوتوبيا. Utopians (المترجم)

ماركس نفسه، لا ما يُطلق عليه "الماركسية" لأناس هم على النقيض منه[44].

بالنسبة للنظرية السلبية للسلام، فهي الشائعة، فعندما يتحدث الناس عن السلام اليوم فهم لا يفكرون بشكل عام عن حالة التضامن المتناغم للإنسانية، ولا عن التطور الكامل للإنسان بالمعنى الروحي، بل عن حالة اللاحرب. ثمة طرق متنوعة قد تؤدي إلى هذا النوع من السلام. هنالك الطريقة السياسية للسلطة فوق القومية التي سوف تسعى صوبه بقوتها حتى لا يمكن لأمة ما أن تبدأ الحرب، والتي بدأت بولاية دانتي العالمية حتى الأمم المتحدة أو فكرة الحكومة العالمية. هناك الطريقة الاقتصادية، وتعتمد على فكرة التجارة الحرة كأساس للسلام مرورًا بفكرة فيشته[45] عن الدولة الأوتوقراطية كأساس للسلام، أو حتى الطريقة السياسية الخالصة، التي تعتمد على فكرة ويلسون التي مفادها أن الحرب ستجعل الأنظمة الديمقراطية آمنة، مرورًا بدعوى الاتحاد السوفيتي أن الاشتراكية السوفيتية يمكنها أن تضمن السلام. إن نظرنا إلى هذه النظرية السياسية الخالصة للسلام من وجهة النظر

---

44. في كتاب "مفهوم الإنسان عند ماركس" يوضح فروم مدى التشويه والتزييف الذي لحق بأفكار ماركس من قبل من أتوا بعده. هكذا يرى فروم الأمر. (المترجم)

45 فيلسوف ألماني. واحد من أبرز مؤسسي الحركة الفلسفية المعروفة بالمثالية الألمانية، الحركة التي تطورت من الكتابات النظرية والأخلاقية لعمانويل كانت. (المترجم)

العسكرية. فإن: "توازن الإرهاب"[46] اليوم هو مجرد امتداد للفكرة القديمة عن توازن القوى، التي محصلتها أن الإنسان يتصرف بطريقة عقلانية، وطالما أن استخدام العنف يعارض مصلحته، فلن يلجأ إليه بفضل عقلانيته. نجد تلك الفكرة في القرن الثامن عشر، وكذلك اليوم بين أولئك من ينظمون ألعاب الحرب من أجل اكتشاف كيف يمكن للاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة أن يتصرفا إبان حرب ذرية، وهما ينظران إلى السلام بطريقة عقلانية واضحة. هل نجحت هذه الضمانات للسلام أو هذه الظروف الخاصة بالسلام السلبي؟ بالطبع لا.

ظهرت حركة جديدة مع إمكانية نشوب الحرب الذرية. لأول مرة فقد العنف منطقيته. أقصد بمنطقيته استخدام وسائل مناسبة لتحقيق أهداف معينة. لأول مرة في التاريخ لم تعد حتى الحرب المنتصرة تضمن هذه الأهداف التي من أجل تحقيقها تستخدم أدوات الحرب؛ ذلك لأنها تنتهي بالدمار الذاتي. سيقول لنا كثير من الخبراء بخصوص هذه المسألة: "الأمر ليس كذلك. سيموت بأمريكا مائة مليون فقط في الأيام القليلة الأولى، وبعد سنوات قليلة سيعود الاقتصاد جيدًا كما لو أنه جديد. هذا يعني أن العنف لم يفقد منطقيته". أعتقد أن الناس الذين يفكرون بهذه الطريقة هم "واقعيي الشهر

---

46 ربما يقصد توازن القوى النووية القادرة على إحداث الهلع بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي وقت كتابة المقالة. (المترجم)

التاسع". إنهم يتناسون أن الأمر لا يقتصر فقط على هلاك من 80 إلى 120 مليون إنسان، ولكن أيضًا دمار البنية الاجتماعية والأخلاقية والإنسانية للمجتمع بأكملها. من المستحيل التنبؤ بالعواقب التي سوف تنجم عن البربرية والجنون. بغض النظر عن ذلك فإن توازن الإرهاب كان له تأثير ظاهر حقيقي في العشرين عام الماضية. أقول ظاهر لأني أعتقد أنه لفترة معينة قد يشكل تفهُّم الدور المُدمِّر للحرب النووية أحد العوامل المنطقية الكابحة للحرب، ولكن بشكل غير كامل، فالأزمة الكوبية وضحت لنا أن الاعتبارات المنطقية في كلا الجانبين منعت الكارثة بالفعل، لكن لا يمكن لأحد قد تتبع أحداث الثلاثة عشر يوما للأزمة بالتفصيل ألا يكون واعيًا بحقيقة أن الأمور كان بإمكانها أن تتحول إلى مسار آخر، ونفس الأمر ينطبق على قرارات الاتحاد السوفيتي أثناء الأزمة، وأنه كانت هناك إمكانية لحدوث كارثة. كلما استمر سباق التسليح كلما ازدادت إمكانية حدوث طفرة تكنولوجية في التسلُّح، وكلما زاد الخوف من هجوم الجانب الآخر أيضًا، وقلت أيضًا إمكانية لا منطقية الحرب النووية على حمايتنا من اللاعقلانية الاجتماعية والروحية.

بالرغم من ذلك فمن الضروري ألا تكون ثمة أوهام لدى القائمين بحملات السلام بشأن عقلانية العنف؛ ليس بالضروري العنف النووي وحده. يقدم لنا دائمًا غاندي نموذجًا يُدلل به على أنه حتى أعظم قوة يمكن أن تخفق أمام

المقاومة السلبية. لو كانت اليابان قد احتلت الهند ربما لانتهت حملة غاندي نهاية مختلفة عما انتهت به تحت حكم بريطانيا. في الواقع فإن العنف يمكنه أن يفعل أي شيء في الإنسان؛ مع الوضع في الاعتبار أن الجزء الأعظم من التاريخ الإنساني بأكمله قد بُني على العنف إما بشكل واضح أو في صورة تهديد. لكن من المهم أن ندرك أن العنف يمكنه أن يفعل أي شيء تقريبًا. بالنسبة لبعض الناس لا يستطيع أن يؤتي بثماره، ولا يمكنه أن يغير من بنيتهم الروحية، أو قناعاتهم، ولكن مع كل الناس يمكنه فقط أن يؤتي بثماره إن استغل بعض الظواهر الضارة جدًّا المتعلقة بـ: تغييب العقل – استنزاف الحيوية وقوة الخيال لقدرة الإنسان الإبداعية بأكملها. في الواقع فأولئك الذين يمارسون العنف في كثير من الحالات لا تهمهم هذه النتائج. على أية حال تبقى هذه النتائج شديدة الأهمية في العملية التاريخية.

لنعد الآن إلى موضوع الخطر القائم للحرب. فيما يتعلق بالحرب الذرية فنحن الآن في موقف لاعب شطرنج يوشك ملكه على الموت بعد قليل من النقلات، لكن تتبقى لديه فرصة ضئيلة لينهي الدور بالتعادل. سأتحدث عن ذلك لاحقًا عندما ننتقل بالحديث إلى استراتيجية السلام. أما الآن فالسؤال عن نظرية السلام، ونحن نضع في الاعتبار أن نظرية السلام تتطلب نظرية عن الإنسانية. نظرية عن المجتمع. نظرية ديناميكية

تتفاعل مع كل من القوى المرئية واللا مرئية العاملة داخل الإنسان والمجتمع.

فيما يتعلق بنظرية الإنسان، أود أن أتحدث عن دور العدوان الإنساني، والذي غالبًا ما يُذكر أنه السبب الرئيسي لحتمية نشوب الحروب إلى الأبد. لأنني عكفت على دراسة هذه الفرضية لفترة طويلة في الأعوام الأخيرة فسأتطرق إلى بعض التفاصيل. أول ما يجب أن يُقال أنه يحدث خلط في كافة الكتابات بين مفاهيم العدوانية والتدميرية والعداء[47]، حتى إن كثير من الافتراضات والنظريات وثيقة الصلة بالموضوع لا تعني شيئًا. إن تحدث المرء عن عدوانية الطفل الذي يريد شيئًا ما صارخًا مطالبًا إياه، أو عن عدوانية شخص ما يسعى إلى هدفه، ويفشل في التفريق بين العدوانية والتدميرية لشخص يرغب في التدمير أو التعذيب، فلا يمكن للمرء بالطبع أن يُشكِّل نظرية لأنه يتحدث عن ظواهر مختلفة جذريًا ومتناقضة جزئيًا؛ وطالما هي متعارضة فلا يمكن إرجاعها لنفس السبب.

أود أن أنتقل الآن إلى عدد من المفاهيم عن العدوانية والتي في رأيي تتميز عن بعضها البعض بشكل مفيد. بادئ ذي بدء لا يجدر بنا أن ننسى وجود عدوانية ليست نفسية على الإطلاق بل مجرد عدوانية في الفعل. ثمة أناس يدمرون دون أن يكون لديهم دافع للتدمير، ودون أن يكونوا مهتمين نفسيًا

47 Aggressiveness – Destructiveness – Hostility.

بالتدمير. إنهم يطيعون الأوامر ويدمرون بنفس الأسلوب الذي يعيدون به البناء. كل ذلك أصبح أسهل اليوم عندما يكون جزء كبير من التدمير بعيدًا جدًّا، حتى أن مرتكب الفعل يكون معزولا عن رؤية ما يفعله. أطلق على هذا النمط من العدوانية: "العدوانية المؤسسية". وأفكر حينها في الشخص الذي يدمر لأنه يطيع الأوامر، ويفعل فقط ما يأمرونه به، ويقوم بالتدمير أو إعادة البناء طبقًا للأوامر. يمكننا بالطبع أن نجد هنا عاملا نفسيًّا يجب فحصه، ويمكن أن نطلق عليه غياب رد الفعل ضد الفعل التدميري. رغم ذلك فهي مشكلة أخرى، لكن سأتعرض لها أيضًا: الشخص الذي لديه هذا النمط من العدوان لا يسوقه دافع للتدمير.

ربما أهم مفهوم يظهر باستمرار أمامنا في المناقشة، والذي أصبح بدرجة كبيرة ذا معنى في الأعوام الأخيرة بفضل مؤلفات كونراد لورينز[48] (konrad lorenz) وعدد آخر من المؤلفين، هي فكرة الحافز للتدمير الكامن في الإنسان كغريزة فطرية، والتي يعتبرها الكثيرون مشابهة للحافز الجنسي. يبدو من المهم لي الآن أن أعرِّف هذا المفهوم للدافع الذي ناقشناه وأقول إنه:

---

48 كونراد لورنتس مولود في عام 1903 في فيينا، وتوفي في عام 1989 في فيينا.

عالم حيوان وطيور وسيكولوجية حيوان نمساوي، يعتبره الكثيرون واحدًا من مؤسسي الإيثولوجيا الحديثة. حصل على جائزة نوبل في الطب أو الفيزيولوجيا عام 1973، مشاركة مع كل من نيكولاس تينبرغن وكارل فون فريش، كما حصل من منظمة اليونسكو على جائزة كالينغا لتبسيط العلوم سنة 1969. (المترجم)

إثارة تنشأ وتزداد تلقائيًا وهدفها تدمير الأشياء، تتصاعد في قوتها طوال الوقت، وحتى عندما عندما نستطيع التحكم فيها، لا بد وأنها تؤدي في النهاية إلى انفجار. يبحث الإنسان طبقًا لهذه النظرية عن أهداف تسمح له بإشباع حافز التدمير لديه كما في المجال الجنسي يبحث عن أهداف تسمح له بإشباع دوافعه الجنسية. هذه هي نظرية كونراد لورينز تقريبًا رغم أنها تناقض بعض فرضياته الأخرى تناقضًا معقدًا تعوزني المساحة لأستطرد فيه الآن. إننا نتعامل هنا بطريقة معينة مع نفس الفكرة التي نجدها في نظرية فرويد عن رغبة الموت، مع أن هذه المتناقضات واضحة بين نظرية رغبة الحياة ورغبة الموت ونظرية الدافع الأصلي، حتى أنه يصعب التحدث عن نظرية فرويد عن العدوانية والتدميرية دون تحليل دقيق لكلا النظريتين. يُعبِّر لورنز عن النظرية بشكل بسيط للغاية: لا تظهر العدوانية بِسبب وجود أحزاب سياسية متعارضة، بل تظهر الأحزاب السياسية بسبب التدميرية. يخلق الإنسان لنفسه الظروف التي يمكنه فيه إشباع تدميريته الداخلية والمتصاعدة دومًا. في رأيي لا يمكن الدفاع عن فكرة تشابه الدوافع التدميرية مع الدوافع الجنسية. يعوزني الوقت لإثبات ذلك الآن. تُعد دراسات الفسيولوجية العصبية، خاصة الأخيرة منها مؤشرًا جيدًا لذلك. أود فقط أن أذكر أبحاث أحد أهم فسيولوجيي الأعصاب Harnandez Peon، الذي فسَّر كيف أن العدوانية مثلها مثل الآليات الأخرى لها مركز مثير وكابح. هذا

يعني أن الإثارة الذاتية التلقائية، والإثارة المتزايدة ذاتيًّا لا تحدث أبدًا كما يحدث في النماذج الهيدروليكية لفرويد أو لورينز. يمكن للمرء أن يثبت على أساس مادة أنثروبولوجية ونفسية أن درجة التدميرية تختلف من شخص للآخر، لذا يبدو من المستحيل أن نفترض قوة تدميرية عامة خاصة بالإنسان. بالنسبة لرغبة الموت عند فرويد، يجب أن نضع في اعتبارنا أنها لا بد وأن تكون موجودة، ليس فقط في الإنسان ولكن في الحيوانات أيضًا، فطالما هي عامل منتج بيولوجيًّا فهي موجودة على أساس وجود المادة الحية. مع ذلك فليس ثمة أي تبرير ممكن لافتراض أن هذه الحيوانات التي تبدو وكأنها أقل عدوانية تموت أو تمرض مبكرًا إن اعتمدنا على المادة المتاحة عن الحيوانات، أو حتى تنتحر أكثر من الحيوانات الأكثر عدوانية، وهو أمر لا يحدث في الحيوانات تحت أي ظرف. ذلك يعني أن المواد المطروحة عن الحيوانات بمفردها تثبت أن نظرية الرغبة في الموت كميل طبيعي حاضر في كل مخلوق حي، نظرية يتعذر الدفاع عنها.

يبدو أن مناقشة مسألة الدافع التدميري الفطري تصل إلى أوجها دائمًا في ذلك البديل: من جانب هناك علماء مثل فرويد ولورنز وآخرين يقولون: "نعم.. يوجد دافع تدميري فطري"، ومن جانب آخر كثير من العلماء خاصة الأمريكيين يقولون: "لا.. ليس صحيحًا على الإطلاق: فالتدميرية دومًا نتاج الإحباط أو أنها سلوك يتعلمه الإنسان. على أية حال فالتدميرية ليست

أمرًا لا يمكن شرحه عن طريق تأثير المجتمع والبيئة، وهي ليست أمرًا كامنًا في تكوين الإنسان نفسه". هذا الموقف الأخير أيضًا لا يمكن الدفاع عنه، فكما نعلم هناك في الحقيقة مراكز في المخ عندما تُستثار، تنتج ردود أفعال عدوانية. نعلم أنه إن شعر حيوان بتهديد مصالحه الحيوية فرد فعله يكون بالهجوم والعدوان. أعتقد أن حلًّا آخر في الإمكان لهذه المشكلة التي تتلخص في: "إما أن التدميرية دافع فطري أو أن البيئة تخلقها وتعلمها للإنسان". يرتكز الحل على افتراض أن استعدادًا للعدوان كامن في نفسية الإنسان، لكنه استعداد لا ينمو أو يزيد تلقائيًّا على الدوام من نفسه كالدافع الجنسي، ولكن يجب أن تحفزه في البداية مثيرات ما، وهنا الاختلاف بين رأيي وبين النظرية الأخرى. إذا لم تكن هذه الدوافع واضحة، لا تنشأ العدوانية لأنه دائمًا ما يحكمه الاتجاه النشط المتزامن حتى يكبح جماحها، وهو من وجهة النظر الفسيوعصبية له مركزه الخاص في المخ. لذا فهذا يعني أنه ليس هناك دافع تدميري يجب أن يظل تحت السيطرة، بل إنه استعداد للتدمير دائمًا ما يكون متأهبًا للتفاعل مع أسباب معينة. ما هي هذه الأسباب؟ إن تكلمنا بشكل عام فهي تظهر في الأساس عندما تُهدَّد المصالح الحيوية للإنسان أو الحيوان. بالنسبة للحيوان فمصالحه الحيوية هي حياته بما فيها حياة نوعه، والعناية بصغاره وأن يجد سبيلا للاقتراب من الجنس الآخر من نوعه ومن مصادر الغذاء، بمعنى آخر القدرة على الاقتراب من

منطقة معينة مرتبطة من عدة أوجه بالحصول على الغذاء والحماية لأطفاله. عندما تُهدَّد هذه المصالح ينشط رد فعل مشروط نفسيًّا يؤدي إلى الهجوم. عندما لا تُهدَّد هذه المصالح فما من فرصة للحديث عن دافع تدميري يعمل تلقائيًّا.

بقدر الاهتمام بالعدوانية عند الإنسان والحيوان، يبدو لي ولكثير من علماء النفس أن لورنز بالرغم من باعه الطويل في حقل الأبحاث عن الحيوان كان سطحيًّا جدًّا فيما قاله عن الإنسان في كتابه: "عن العدوان" 1963. يخرج الكتاب بنتيجة أن الحيوان يقتل فقط بدافع من الضرورة، ولا يقوم بذلك بوحشية. أقصد بكلمة "وحشية" دون رغبة في التدمير. لقد توصل علماء نفس الحيوان إلى مواد كثيرة يدعمون بها هذه النظرية. على سبيل المثال من النادر جدًّا أن يفقد الحيوان المهزوم من حيوان آخر من نفس فصيلته حياته. يستجيب الحيوان إلى أي تهديد لمصالحه الحيوية بشكل خاص بعض الشيء أي عندما يكون هذا التهديد مباشرًا فقط. هنا إحدى الاختلافات عن رد فعل الإنسان، والذي يجب أن أتحدث عنه الآن. يتمتع الإنسان دون شك بعدوانية وتدميرية أكثر من الحيوان. لقد توصل إلى ذلك كثير من العلماء ومن ضمنهم ممن ينتمون إلى مدرسة لورنز. الحقيقة أنه إن تخلص الإنسان فقط من عدوانية وتدميرية القرود أو الشمبانزي التي لديه لكنا قد تمتعنا بعالم مسالم تمامًا، لكنه لا يفعل ذلك.

لماذا تعد إذن العدوانية الارتكاسية للإنسان التي تتفاعل ضد تهديد مصالحه الحيوية أخطر من عدوانية الحيوان؟ ليس التفسير صعبًا. إن حقيقة أن الإنسان يتمتع بالوعي، وتطور عقله يمنحانه إمكانات ليست متوفرة لدى الحيوان. يتطلع الإنسان في المقام الأول إلى الأمام ليرى المخاطر غير الواضحة في الحاضر الآني، ولكن التي من الممكن أن تحدث في المستقبل؛ لذا فعلى عكس الحيوانات يشعر الإنسان بأنه مهدد ليس فقط من الخطر الحالي فقط، بل أيضًا من الخطر المستقبلي. الأمر الآخر أن الإنسان يخلق رموزًا وقيمًا توحدت معه ومع وجوده بالكامل. الهجوم على هذه الرموز والقيم بمثابة هجوم على مصالحه الحيوية، وهو أمر غير موجود في عالم الحيوان. الأمر الثالث أن الإنسان يخلق لنفسه أوثانًا يُستعبد لها، ودونها لا يمكنه أن يعيش في مرحلة معينة من التطور دون أن يُجن أو يتمزق. في مرحلة معينة تمثل عبوديته لهذه الأوثان توازنًا روحيًا له، وكل هجوم على هذه الأوثان يعتبره بمثابة هجوم على مصالحه الحيوية.

لا أعني بذلك ما ندعوه أوثانًا في العهد القديم من أمثال: مولوخ وعشتار أو الأصنام الأزتكية في الديانة المكسيكية، ولكني أقصد الأوثان التي نعبدها اليوم؛ أوثان الأيدولوجيا والسيادة القومية والأمة والجنس والدين والحرية والاشتراكية والديمقراطية والاستهلاك الأقصى والمؤسسة.. إلخ. لقد توثّن كل شيء، وأصبح كل شيء قام الإنسان بصنعه منفصلا عنه

لذا فهو أهم وله قيمة أعلى منه. طالما يعبد البشر أوثانًا فسيجدون دومًا أن هجومًا ما على هذه الأوثان يشكل خطرًا على مصالحهم الحيوية. ربما لا يوجد تهديد نتجت عنه عداوة وتدميرية في تاريخ البشر أكثر من تهديد الأوثان. والحقيقة أن الناس يخدعون أنفسهم دائمًا عندما يصدقون أن الآلهة التي صنعوها بأيديهم هي الآلهة الوحيدة الحقيقية. لكن هذا الخداع لا يغيِّر من حقيقة أن تهديد هذه الأوثان هو واحد من العوامل الرئيسية التي تحفز العداون الإنساني. رابعًا وأخيرًا فالإنسان لديه القابلية للخضوع للإيحاء. يمكن للمرء بسهولة أن يقتنع أن مصالحه الحيوية مُهدَّدة حتى وإن لم تكن كذلك. يمكن أن يحدث له غسيل مخ. سواء كانت مصالح المرء الحيوية مهددة بالفعل، أم أنه يدع نفسه تخضع للإيحاء بأنها مهددة، فرد الفعل واحد. إن تدميرية أو عدوانية الإنسان الارتكاسية من حيث المبدأ مماثلة للحيوان، ومع ذلك فهي أكبر وأعمق من مثيلتها في الحيوان للأسباب التي ذكرناها. من الواضح أن المشكلة الحقيقية لهذا النمط من العداء التفاعلي ليس الدافع التدميري، بل ربما العكس. التأكيد في أيامنا هذه على الدافع التدميري يحجب الحقيقة. إنه يخفي فحص كل العوامل التي تُعزِّز العدوان الإنساني في الواقع. إن المشاكل النفسية الحقيقية هنا هي مشاكل تواكل الإنسان على أوثانه، ونقص النزعة النقدية، والإيحاء، وكل ذلك يرتبط بنقص تطور الإنسان الروحي الكامل. لكن كل هذه العوامل هي نتاج

لبنى المجتمع التي تأسست على مبدأ الاستغلال والقوة حتى يومنا هذا - باستثناء بعض المجتمعات البدائية – وما زالت ضرورية كما كانت من قبل بسبب نقص تطور القوى الإنتاجية. منذ وجود الإنسان وحتى يومنا هذا فقد عاش أسيرًا، وكل محاولات دراسة طبيعة الإنسان عن طريق علاقاته السابقة لا تختلف كثيرًا عن دراسة أنواع معينة من الحيوانات في حديقة الحيوان. من المعروف أن كثيرًا من الحيوانات تظهر ملامح عدوانية في الأسر لا تظهرها وهي حرة، والباعث على السخرية أننا ظللنا ندرس الحيوانات وهي في حالة الحرية وهو الأمر غير الممكن حتى الآن مع البشر.

سأطلق على النمط الثاني من التدميرية والذي يختلف قليلا عن العدوان التفاعلي وهو يخص الإنسان وحده: التدميرية السادية القاسية. إنها ليست جنسية في الأساس، لكن يمكن التعبير عنها في الجنس. هدفها هو تجربة الشعور بالقوة المطلقة على البشر والأشياء، وهو هدف يُعبِّر عن نفسه في السيطرة المطلقة على الناس والأشياء حتى حد التدمير والتعذيب. لا يمكننا أن نفهم تجربة الشعور بالقوة المطلقة إلا بفهم جذورها؛ أعني الشعور بالعجز الذي يختبره معظم الناس طوال التاريخ وحتى يومنا هذا. لا يتوجب على هذا الشعور أن يكون واعيًا، فهناك طرق كافية لخداع المرء لذاته بشأن هذا الشعور، فمن المقلق أن يكون لديك شعور واعٍ بالعجز. من الواضح أنه إن شعر المرء بعدم القدرة على خلق شيء حي،

فسوف تكون لديه رغبه في تدميره على الأقل؛ فتدمير المادة الحية يعد بمثابة معجزة عظيمة كخلقها تمامًا، باستثناء أن الخلق يتطلب بذل الجهد والنظام والموهبة، واستخدام كل الإمكانات البشرية، والتدمير اليوم أو بالماضي مجرد سلاح الأقوياء. لذا نجد مرارًا وتكرارًا في الأفراد والطبقات الاجتماعية حرمانًا متزايدًا لإمكانية وجود تجربة إبداعية خلاقة، فعلى سبيل المثال نجد في الطبقة البورجوازية الصغيرة بألمانيا قبل هتلر، أو المجموعات البيضاء المتشابهة اجتماعيًّا في الولايات الجنوبية بالولايات المتحدة، أن الناس الذين يفتقرون للسعادة والقدرة الخلاقة بسبب وضعهم الحقيقي يظهرون هذه النزعة التدميرية السادية بدرجة أكبر من غيرهم في المجموعات الأخرى. فإن استمرت تجربة الشعور بالقوة المطلقة لساعة واحدة أو حتى عشر دقائق: تجربة تحطيم كافة القيود للوجود الإنساني ليصبح الإنسان إلهًا، لشخص لا يمثل شيئًا سوى دودة من ناحية وجوده الاجتماعي وبالنسبة لنفسه، هذه التجربة تستحث كثيرًا من الناس للموت لأجلها. هذا هو السبب الذي يجعل التهديد بالموت لا يُجدي مع هذا النمط من الناس، فالتجربة نفسها تستحق الموت لأجلها. عندما يملك إنسان قوة بلا حدود سيبدأ في الجنون. لا أعني ذلك بشكل رمزي على الإطلاق، بل أتكلم بشكل واقعي تمامًا. إن أنصاف المجانين غالبًا ما يفقدون عقولهم إن وجدوا أنفسهم في وضع يجعلهم ينسون حدود الوجود الإنساني. لقد حلل ألبير كامو في

مسرحيته "كاليغولا" بشكل واضح هذا النمط. عادة ما تُوصف تدميرية القدرة الكلية السادية على أنها نشوة صوفية غريبة للإنسان. لا نجد في الأدب أيًا من هذه الملامح في الحيوانات. إنه أمر خاص بالإنسان، لأسباب يسهل فهمها: بسبب الصراع الوجودي بين ضعفه كحيوان وضعفه ككائن عقلاني والشعور الناتج من عجزه الذي يود أن يتسامى عليه.

سأتكلم عن نمط ثالث من التدميرية باختصار بسبب نقص الوقت المتاح وهو التدميرية النيكروفيلية. استُخدمت كلمة "نيكروفيلي" عامة للدلالة على انحراف في اهتمام الرجل الجنسي بجثة أنثوية، وهو انحراف نادر نسبيًا لكنه يحدث. المعنى الذي أقصده بنكروفيلي استخدم لأول مرة بواسطة أونامونو في خطبته الشهيرة بسلامنكا قبل ستة شهور من موته، عندما تفاعل مع نداءات ميلان أستاي التابع للجنرال فرانكو الذي كان شعاره: "يحيا الموت"، فقال أونامونو: "لقد سمعت الآن صيحة نيكروفيلية عبثية". تعني كلمة نيكروفيلي بهذا المعنى أيضًا الذي أستخدمه: الانجذاب إلى كل شيء ميت: كل شيء متحلل، الانجذاب إلى المرض، كل شيء غير حي، لا ينمو، لكنه فقط آلي. النيكروفيلية بهذا المعنى واضحة أيضًا في إعلان مارينيتي المستقبلي الذي عبَّر في أوائل عام 1907 بشكل واضح جدًّا عن هذا الانجذاب صوب التدمير وإلى كل ما هو آلي غير حي. النقيض المباشر للنيكروفيليا هو ما أطلقت عليه "البيوفيليا"؛ وهي حب استثنائي للحياة، وهي سمة البشر الذين

لا يريدون أن يعيشون فقط كبقية البشر، ولكنهم يشعرون بسعادة خاصة إزاء كل ما يعيش وينمو، ذو بنيان، والذي يكوّن نفسه بنفسه وليس آليًا. من اللائق هنا أن نتحدث عن العلاقة بين مفهوم النيكروفيليا والبيوفيليا من جهة وبين الرغبة الفرويدية في الحياة والموت من جهة أخرى. بالنسبة لي فإني أرى الاختلاف الأساسي يكمن في أن الرغبة في الموت عند فرويد عادية بيولوجيًا، بينما النيكروفيليا بالنسبة لي أمر مرضي. بالنسبة لبقية الأمور فقد أظهرت عدة دراسات جيدة في الأعوام الأخيرة أن المرء بإمكانه أن يُعرِّف الموت والتحلل عند الأحياء من البشر إكلينيكيًا في اختبارات رورسشاش؛ في الأحلام وفي أعراض معينة. لدينا مواد كثيرة متاحة تتعلق بهذا الموضوع في تلك الفترة. أود أن أنهي هذا الموضوع بملحوظة أننا في حاجة إلى نظرية أكثر اتساعًا عن الإنسان أكثر من حاجتنا لنظرية عن السلام؛ فنحن في حاجة إلى أنثروبوجيا إنسانية ديناميكية، أو بشكل أدق إلى تحليل نفسي إنساني. بالنسبة لما أعنيه هنا بالتحليل النفسي فلدي أنا وماركيوز[49] على سبيل المثال آراء مختلفة جدًا، ولكن الخوض في هذه الاختلافات سيأخذنا بعيدًا الآن.

---

49 فيلسوف ومفكر ألماني أمريكي، معروف بتنظيره لليسار الراديكالي وحركات اليسار الجديد ونقده الحاد للأنظمة القائمة. (المترجم)

بالنسبة لنظرية المجتمع سأسلط الضوء على أمر واحد: أقصد به حقيقة أن المجتمع قد خلق إبان الثورة الصناعية الثانية ظروفًا محددة إلى حد كبير تؤدي إلى زيادة في العدوانية البشرية. أقصد هنا قبل كل شيء الفصل المتزايد بين العاطفة والذكاء. نحن نقترب ببطء من تطوير فصام غير حاد لكنه مزمن يجد تعبيرًا دقيقًا عنه في الانفصال الحاد بين العاطفة والفكر. لا ينتج عن ذلك العدوانية فقط، ولكن اللامبالاة بالحياة أيضًا. ربما اللامبالاة بالحياة أكثرمن أنها تدميرية فهي أحد أخطر الأسباب لقابلية الإنسان لتدمير نفسه وتدمير الآخرين. لا يجب التحدث عن ذلك ببساطة عند مناقشة موضوع السلام. أود أن أضيف بضعة كلمات أخرى عن استراتيجية السلام: أعتقد أنه يمكننا أن نتحدث فقط عن استراتيجية تحت ظروف اجتماعية محددة. لدينا القليل جدًّا من الوقت الذي يسمح لنا بالانتظار حتى يتغير الإنسان والمجتمع بشكل جوهري، وهذا ينطبق على كليهما. إن الحديث عن الثورة في مجتمع صناعي بأكمله بمثابة أمر يرضي أولئك المهتمين به فقط، ولكن الأمر على العكس من ذلك، فما من معنى لذلك فهو لا يقوم على أي نوع من الحقيقة. لذا يجب علينا أن نتحدث عما يمكن أن نفعله من أجل السلام في هذه الظروف الحالية في الخمسة أو العشر أعوام المقبلة.

أعتقد أن فرص السلام واهية جدًّا. لكني أعتقد أيضًا انه طالما نتحدث عن حياة الفرد أو المجتمع، فلا يمكن أن نتحدث

بالحسابات أو النسب المئوية، بل يجب علينا أن نقوم بأفعال ونخطط طالما هناك فرصة حقيقية لذلك. أعتقد أيضًا أن هذه الإمكانية الحقيقية ما زالت موجودة بالرغم من أنه في أفضل الظروف سنصل إلى فترة سكون عن استخدام الذرة في التدمير، وسنصل إلى إجراءات يمكن أن تقودنا إلى سلام حقيقي لأنها مؤسسة على تغييرات حقيقية في الإنسان والمجتمع. يمكن فقط للسلام بمعناه الإيجابي أن يضمن السلام بمعنى حالة عدم الحرب على المدى الطويل. طالما أن معدلات القوة البشرية والاجتماعية موجودة فسيبقى السلام غير مؤكد، وسنواجه خطر التدمير الشامل في كل لحظة من العصر الذري. أود أن أشير فقط إلى بعض الشروط التي لا يمكن إهمالها كعناصر باستراتيجية السلام:

1- يجب أن يكون هدف استراتيجية السلام المعارض لاستراتيجية الحرب هو تجنب هزيمة الخصم، وهذه هي القاعدة. وأسباب ذلك بسيطة، يمكننا أن نتفهمها عبر أحداث العشر أو العشرين عاما الأخيرة[50]. فيما يسمى بالحرب الباردة أو الدبلوماسية فإن حاول المرء إلحاق أكبر عدد من الهزائم الممكنة بسياسات الخصم، فسيؤدي هذا إلى نتيجة واحدة وهي جعل سياسة الخصم أكثر قسوة سواء بوصول المولعين

50 ظهرت هذه المقالة لأول مرة في عام 1970.

بالحرب إلى السلطة، أو بأن يبدل أولئك من أيدوا السلام سابقًا تكتيكاتهم السابقة بتكتيكات جديدة تصب في اتجاه المولعين بالحرب. إن فكرة أن يعمل المرء من أجل السلام بتوجيه هزائم دبلوماسية للخصم هي فكرة خاطئة. كان ذلك معروفًا لدبلوماسيي وسياسيي القرن التاسع عشر، وقد تصرفوا طبقًا لذلك في كثير من الحالات. أما اليوم فيبدو أن الناس أقل وعيًا بذلك. إن جوهر استراتيجية السلام يكمن في التعرف على المصالح المشتركة، بشكل أدق التعرف على مجالات المصلحة السائدة مع الحياد المتزامن لتلك المجتمعات الموجودة خارج إطارات المصلحة. رغم ذلك عليّ التشديد أن هذا الحياد لا يعني أنه لن يكون مسموحًا بالثورات في هذه البلدان المحايدة، لكن يجب ألا تغير الثورات من التوازن الدولي للقوة؛ أي ألا تُستخدم من قبل القوى العظمى لأهداف سياساتهم الخارجية. كل هذه الأهداف رغم ذلك غير كافية إن لم نضف هدفًا سياسيًا آخر.

2- هدف استراتيجية السلام هو تعبئة الجموع الحاشدة من الناس من أجل فكرة السلام، بهدف تدريب الرأي العام على تشكيل ضغط على الحكام في كافة الدول ضد الحرب، ومن أجل وضع حد للحسابات غير العاقلة. هذا يعني التنوير فيما يخص الحقائق، تعليم

التفكير النقدي، كشف القناع عن الخداع الموجود فيما يتعلق بالحقائق عن السلام والسياسة الخارجية. على حركات السلام أن تقوم بذلك بنجاح بدرجة كافية. تُشكِّل الولايات المتحدة نموذجًا على نجاح ضغط الحركات الموالية للسلام على الرأي العام في الأعوام الأخيرة، خاصة فيما يتعلق بحرب فيتنام[51]. لكن حتى ذلك ليس كافيًا. لا يكفي مخاطبة عقل الإنسان ومنطقه، بل يجب أيضًا مخاطبة مشاعره، بل مخاطبة الإنسان بأكمله. هناك عدد كبير اليوم من الناس من مختلف أنحاء العالم يشعرون باستياء عميق فيما يتعلق بنمط وطريقة ثقافة حياتنا الاستهلاكية. من المهم أن نكون واعين بهذا الاستياء غير المعروف. ربما تشكل إحدى اللحظات الحاسمة في حملة مكارثي[52] حينما حرّك استياء الناس، وحينها ظهر أنه موجود داخل قطاع عريض من المجتمع الأمريكي. لكن ذلك ليس كل شيء. ما نحتاجه في النهاية هو

51 في ضوء دراسات فروم في المقالات السابقة ربما يجب أن نحاول فهم أسباب عدم نجاح هذه الحركات الآن في الولايات المتحدة في منع كافة الحروب السابقة: أفغانستان.. العراق... إلخ. (المترجم)

52 كان رئيسا لإحدى اللجان الفرعية بمجلس الشيوخ، واتهم عددًا من موظفي الحكومة وبخاصة وزارة الخارجية، وقاد إلى حبس بعضهم بتهمة أنهم شيوعيون يعملون لمصلحة الاتحاد السوفييتي. تبين فيما بعد أن معظم اتهاماته كانت على غير أساس. أصدر المجلس في عام 1954 قرارا بتوجيه اللوم إليه. (المترجم)

كيفية عرض رؤية المجتمع الذي يستحقه الإنسان، حيث لا يكون الإنسان فيه جزءًا من ماكينة عملاقة، ولا يكون خاملا، بل يشارك بفعالية، ولا يشعر أيضًا بالملل المميت. يشعر كثير من الناس بذلك، ولكن في غالبية الوقت بشكل غير واعٍ. يمكننا أن نجعل من ذلك الشعور واعيًا بتأثيرات موجهة للإنسان بأكمله، وليس فقط صوب فكره ومصلحته في تجنب الحرب. نحتاج لأجل ذلك أن نبذل جهدًا منظمًا ومكثفًا لنوضح حقيقة الأوثان التي تحدثت عنها. طالما يعبد الإنسان الأوثان فهو ليس في موقع يسمح له بالتفكير والتصرف كمخلوق حر يرغب في حياته وحياة الآخرين. في اعتقادي أن الكراهية والعنف حتى إن كانا في مصلحة السلام يخدمان فقط أنفسهما. في عصر نكون فيه مقيدين ومحددين بإمكانات معينة؛ أي في عصر الأسلحة النووية، فإن إشعال الكراهية والعنف أيًا كان هدفه يشكل خطرًا كبيرًا على السلام. هناك آراء عديدة مختلفة بشأن ذلك حتى بين أولئك من يعتبرهم الآخرون يوتوبيين.

لذا يمكن لحركة سلام أن تنجح إن امتدت أكثر من حدودها كحركة سلام، وأصبحت حركة إنسانية جذرية، وإن أصبحت في موقع يسمح لها بالتوجه صوب الإنسان بأكمله: الإنسان الذي يعاني من نقص الحيوية التي ينتجها المجتمع

الصناعي، وإن أمكنها أن تعرض رؤية لمجتمع وإنسان جديدين. أما مسألة نجاح حركة السلام في التأثير على الناس، وعلى الحكام المنادين بالسلام بطريقة غير مباشرة، فتبقى غير مؤكدة. لكني أعتقد أنه لا شيء عملى خلاف هذه المحاولة في ظل الظروف الراهنة للعمل من أجل السلام. على المدى الطويل يمكن فقط لتغيير جذري في المجتمع أن يحدث سلامًا دائمًا.

الفهرس

مقدمة 3

العصيان من منظور نفسي وأخلاقي 9

أنبياء وكهنة 19

النزعة الإنسانية (فلسفة الإنسان العالمية) 45

تطبيق التحليل النفسي الإنساني على الماركسية 63

فليغلب الإنسان! (دع الإنسان يسود) 87

الاشتراكية الإنسانية 113

المظاهر النفسية لكفالة الدخل 139

الشيخوخة ومشاكلها النفسية 155

نظرية واستراتيجية السلام 179

إن السؤال عن العصيان اليوم له أهمية خطيرة. في الوقت الذي بدأ فيه التاريخ البشري -طبقًا للتوراة- بعصيان آدم وحواء، والذي بدأت فيه الحضارة -طبقًا للأساطير اليونانية- بعصيان بروميثيوس فليس من المستبعد أن ينتهي التاريخ البشري بفعل إذعان للسلطات التي بدورها تذعن لأصنام السلطة العليا والفخر الوطني والانتصارات العسكرية البائدة، ولمن سيعطي الأوامر بالضغط على الزر القاتل لهؤلاء الذين يطيعون السلطة وأصنامها.





